مكتبة نوبل ١٩٤٦

#42

هرمان هسه

صيف كلِنْكسر الأخير

22.10.2018

ترجمة: ستار سعيد زويني



هرمان هسه

صيف كلِنْكسر الأخير

ترجمة: ستار سعيد زويني

صيف كلِنْكسر الأخير

رواية

Author: **Hermann Hesse**
Title: **Klingsor's Last Summer**
Translator: **Sattar Said Zouwayni**
Cover designed by: **Roula Majed**
P.C. : **Al-Mada**
Second Edition: **2014**

المؤلف: **هرمان هسه**
عنوان الكتاب: **صيف كلنكسر**
المترجم: **ستار سعيد زويني**
تصميم الغلاف: **رولا ماجد**
الناشر: **دار المدى**
الطبعة الثانية: **٢٠١٤**

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
www.daralmada.com info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 آيار
ص.ب: ٨٢٧٢
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

«مقدّمة لا بدّ منها»

يقدّم لنا (هيسه) هنا محنة الإنسان المعاصر، محنة مبدع تُهيمن عليه فكرة الزوال ولا يعينه إبداعه على أن ينجو من قدره المحتوم: (أشرب نخبك أيتها الأشياء الرائعة في العالم! أنا الأكثر إيماناً، والأكثر حزناً، الذي يعاني خشية الموت أكثر منكن جميعاً).

كلْنكسر رسّام مبدع يعشق الحياة ومباهجها، وتسكنه فكرة الميلاَد والموت، النشوء والتفسّخ: (كانت لوحة ألوانه الصغيرة سلواه، وبرجه، وترسانته وكتاب صلواته، ومدفعه. منها أطلق النار على الموت الشرير)، ويحاول أن يخلّد الحياة بالإبداع وبتحدّي الزوال: (لقد أطلقت النار على الموت بالألوان) كلْنكسر فنّان مبدع تحيطه الخصوبة، فهو في حوار مع المنجّم يَقول له إنه وُلد في الثاني من تموز، فيقول له المنجّم: (الخصوبة تحيطك مثل غيمة توشك أن تنهمر). إنّ تموز هنا رمز للخصوبة، ورمز للحياة كذلك: (احترق تموز، وسيحترق آب، وفجأة تثلجنا الروح العظيمة).

يقدّم لنا هيسه بيئة إيطاليّة بأسماء أماكنها وجوهاً ويضمّن الحوار مفردات ايطالية. وعلى الرغم من أنّ أسماء المناطق وهميّة، إلّا انّ بعض الأسماء حقيقيّة لكنها ليست في إيطاليا، مثل جبل أتوس الذي يقع في اليونان، وجبل الزيتون الذي يقع في فلسطين.

يبث هيسه في ثنايا القصة تلميحات وإشارات تجعل منها كثيرة المستويات، واسعة المدى، غزيرة الأفكار. فإضافة إلى هاجس الموت الذي يربض على تفكير الإنسان، هناك الحرص على القيم والجوهر الروحي للحياة: (مرحى أيّها العالم القديم، احرص على أن لا تنهار)، وبساطة الناس وطيبة قلوبهم تظهر عندما يذكر سكّان جزر بحر الجنوب الذي يقع ما بين شرق استراليا وغرب أميركا الجنوبيّة، وفيه تقع غينيا الجديدة ونيوزلندا، فيشير إلى (غوغان) الرسّام الفرنسي الذي رسم سكان هذه الجزر ببساطتهم كأنهم يسيرون في حلم. كأن هيسه بذلك يشير إلى أرض بكر وشعوب بعيدة عن المدنيّة فاحتفظت ببراءتها.

كلْنكسر، من جهة أخرى، رمز للإنسان الأوروبي المعاصر الذيَ يسكنه الخوف من المدينة والحضارة الأوروبيّة التي شارفت على النهاية، ويعيب عليها أنّها ظنت مدّة ألفي عام أنّها عقل العالم؟، انقلبت مدنيّتها عليها فصارت لا تعرف سوى صنم الدمار والحروب.

يبشِّر كلْنكسر بابتداء نهاية الغرب وولادة عصر جديد، إذ يقول للمنَجّم المجوسي: (إنّك رسول لي من الشرق) إشارة إلى رحلة الكهنة المجوس الثلاثة إلى فلسطين ليشهدوا ولادة عيسى المسيح(ع)، وفي هذا دلالة على انتهاء عصر وصل إلى حافة الانهيار وها هو يشهد ولادة عصر جديد.

إن هيسه المفتون بالأسماء الغريبة يقدّم لنا (كلْنكسر) هذه المرّة! وهيسه المفتون بالشرق يتحدث هنا عن نكازاكي، واليابان، والهند. ويقابل بين كلْنكسر و(لي بو)، وبين صديقه الكاتب هيرمان و(توفو). وهمَا شاعران صينيان برزا في العصر الذهبي

للشعر الصيني. لي بو (٦٦٩ ـ ٧٦٢) شاعر تاوي المعتقد، بزّ كلّ سابقيه بخياله الجامح. يتميّز شعره بسحرٍ أخّاذ لم يتصف به غيره، وكتب عن أحلامه وحبّه للخمر، وعَكَس شعراء عصره كتب بالأسلوب الصيني القديم. أما توفو (٧١٢ ـ ٧٧) فهو من شعراء الصين العظام، كونفوشيوسي المعتقد، تفوّق على شعراء عصره بالأسلوب والموضوع، ولديه استخدام ذكي للّغة في قصائده الأخيرة ذات الأسلوب الذي أثّر في شعراء الصين قروناً طويلة[1].

كما أنّه يلمّح إلى الشعر الصوفي تلميحة كبيرة المعنى، فهو يقول: (غوته وصنوه حافظ). وغوته (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢) كما هو معروف شاعر الألمان الأكبر، مؤلف فاوست وبروميثيوس. أما (حافظ) خواجه أو حافظ الشيرازي، شمس الدين محمد (١٣٢٦ ـ ١٣٩٠) فشاعر فارسيّ غنائيّ كبير اعتمد لغة الصوفيّن، شعره أنيق بلغ الكمال في أسلوبه. جمعت ٥٦٩ قصيدة له بعد وفاته وسمّيت (ديوان حافظ). ولغته مجازيّه[2]. وقد تُرجمت قصائده إلى بعض اللغات الأوروبية، منها ثماني ترجمات إلى الألمانية. وهنا الربط بينه وبين غوته «الذي قرأ قصائده بالألمانية بترجمة (فون هامر) التي نشرت العام ١٨١٢، وقد أعجبت غوته ممّا جعله يهتم بالشرق الإسلامي اهتماماً عظيماً يظهر أثره بعد ذلك في ديوانه الشرق الغربي»[3].

---

(١) موسوعة World Book Encyclopedier

(٢) من معجم an Oriental Biographied Dictionary New York ١٩٦٥

(٣) نبذة ترجمها د. فؤاد حسنين علي من كتاب:

Graf Platents Nachbildungen ans dem divram Hafis, von Friedrisch, Veit P 260-262

وضمها كتاب إبراهيم أمين الشواربي (أغاني شيراز) القاهرة ١٩٤٤، ص ٣٦.

ويذهب التفسير المجازي لشعر حافظ أن للمفردات معاني بعينها وهنا نجد علاقة بين لغة حافظ والمفردات التي يُكثر من ذكرها هيسه في هذه القصة.

إن كلْنكسر صورة للإنسان المعاصر بكل تناقضاته. فهو يحبّ الحياة والعمل والمزيد من الإنجاز، وفي مرحلته هذه يريد أن يحقّق المزيد، ويعدّ كلّ ما أنجزه حتى هذا الوقت مجرد بداية، فلديه توق نشوان للإبداع. ويعتقد كذلك بحريّة الإرادة وقيادة المصير، أيّ اختيار الإنسان لمسار حياته، ويؤمن إيماناً عميقاً بحتميّة القدر وحتميّة الزوال.

يدير هيسه الحوار بين شخصيات الرواية بحذق، فيقدّم لنا حواراً ساحراً رائعاً، ويقدّم تلميحات ذكية هنا وهناك تعطي ايحاءات كبيرة بكلمة واحدة. كما يقدّم وصفاً باذخاً وسرداً جميلاً يستغرق القارئ فيه ومعه.

في الفصل الأخير (البورتريه الشخصي) تكتمل صورة كلْنكسر، وهي بحقّ لوحة رائعة للإنسان الحاضر بكل تناقضاته، ومشاعره، وأفكاره، وخلجاته، وطموحه، وصفاته السامية والحقيرة. ولقد كنت أتساءل وأنا أترجم هذا الفصل: هل يمكن لرسّام ما أن يرسمها لوحة فعليّه؟!

ستار سعيد زويني

بغداد ـ تموز ١٩٩٣

تمهيد

أمضى الرسّام كِلْنكسر الصيف الأخير من حياته وهو في الثانية والأربعين من عمره في تلك الأقاليم الجنوبيّة، في ضواحي بامبامبيو، وكارينو، ولاغونو التي كان يحبّها وغالباً ما زارها في سنوات سابقة. هناك أنهى آخر رسوم له، تلك الصياغات الجديدة الحرّة لأشكال عالم الظواهر، تلك الصور الغريبة والهادئة، هدوءاً حالماً بأشجارها الملتفّة والبيوت الشبيهة بالزرع، التي يفضلها الخبراء على أعمال مرحلته «الكلاسيكية». في ذلك الوقت اقتصرت لوحة ألوانه على ألوان قليلة مشرقة جداً: الأصفر البرتقالي والأحمر، الأخضر الفيرونيزي[٤]، الزمردي، أزرق الكوبالت، البنفسجي المزرقّ، الأحمر الفرنسي، القرمزيّ الداكن.

في أواخر الخريف هزّ نبأ موت كلنكسر أصدقاءه. وكان الكثير من رسائله يتضمّن نُذُر شرّ أو تمنياً للموت، وربّما كان هذا قد قوّى الاشاعة التي تقول إنه انتحر، وكانت إشاعات أخرى، كما هي الحال عندما تنتشر من إسم مثير للجدل، تقوم على معلومات

(٤) أخضر فيرونيزي: لون ناتج عن مزج الأخضر بالفيروزي ابتدعه الرسام الايطالي باولو فيرونيزي Paolo Veronese (١٥٢٨–١٥٨٨) واسمه الأصلي باولو كاكلياري وسمي بهذا الاسم نسبة إلى مدينة فيرونا.

ضئيلة مثلما كانت الاشاعة الأولى. وكان الكثير من الناس يؤكّد أن كلنكسر كان مصاباً بمرض عقليّ في شهوره الأخيرة، وحاول ناقد فنيّ قصير النظر بعض الشيء أن يفسّر الصفة المجفلة النشوى لرسومه الأخيرة انطلاقاً من جنونه المزعوم! وهذا هراء كلّه، مع وجود بعض الأساس لقصة افراط كلنكسر بالشرب التي زخرفتها وفرة الحكايا عنها. كان من المؤكّد أنّ له ذلك الميل ولكن ما من أحد تحدَّث عنه أكثر صراحة من كلنْكسر نفسه، ففي مراحل معيّنة من حياته كان ذلك يعني أكثر مَن قضيّة فترات شرب متواتر، ولذلك السبب أيضاً ما كانت عليه حالته في الأشهر الأخيرة من حياته، فقد كان يُغرق عن عمد وجعه وكآبته التي لا تكاد تطاق بعض الأحيان في شرب الخمر، وكان (لي بو) مؤلِّف أكثر أغاني الخمريّات عمقاً شاعره المفضّل، وكان عندما يسكر غالباً ما يدعو نفسه (لي بو)، ويدعو أحد أصدقائه (توفو).

لقد خلّدت أعماله، وضمن دائرة أصدقائه الحميمين الصغيرة خلّدت أسطورة حياته وذلك الصيف الأخير منها خلوداً لا يقلّ عن ذلك قوة.

كلنكسر

كان قد بدأ صيف مشبوب العاطفة لحياة سريعة الوتيرة. كانت النهارات الحارّة، الطويلة عادة، تشبّ النار فيها وتتوهّج من دون توقّف كالراية الخفّاقة المشتعلة. وكانت الليالي القصيرة المقمرة شديدة الرطوبة تتبعها ليال قصيرة ممطرة شديدة الرطوبة، والأسابيع المتألّقة تمضي على نحو محموم، سريعاً كالأحلام التي تتزاحم فيها الصور.

بعد عودته مباشرة من نزهة ليليّة وقف كلنكسر في الشرفة الحجرية الضيّقة لمرسمه، ودونه كانت الحدائق المتدرِّجة القديمة تغفو وقد انحدرت على نحو مشوّش، مع قمم الأشجار المتشابكة مثل النخيل والأرز وجوز الهند والكستناء والارجوان واليوكالبتوس، التي تلفّها عتمة شديدة، وقد التفّت كالضفيرة مع نباتات متسلّقة مثل اليانا والويستريا. فوق ظلمة الأشجار كانت الأوراق الكبيرة اللامعة للماغنوليا الصيفي تومض شاحبة، تقف وسطها نصف متفتحة براعم بيض كالثلج. ضخمة كرؤوس البشر، شاحبة كالقمر والعاج. اندفعت نحوه من وسط الخضرة الكثيفة رائحة الليمون المثيرة النفّاذة عطرةً حادّة. وحلّقت إلى

أسماعه من مسافة غير محدّدة موسيقى خافتة، قد تكون قيثارة أو بيانو، فلم يستطع تبيّن ذلك. فجأة صاح طاووس في فناء ما، ثم صاح ثانية، فثالثة خارقاً ليل الغابة بتلك الصيحة القصيرة الغاضبة الخرقاء لصوته المعذّب كما لو أن ألم عالم الحيوان كلّه كان يصرخ من الأعماق صراخاً حاداً أجشاً. تدفق ضوء خلال الوادي المشجّر، ولاحت، عاليةً مهجرة، وسط الغابة التي لا نهاية لها كنيسة صغيرة بيضاء، قديمة مسحورة، وعلى مبعدة تدفقت البحيرة والجبال والسماء معاً.

وقف كلنكسر في الشرفة بلا سترة مستنداً بذراعيه العاريتين على الحاجز الحديدي، وعيناه متقدتان، يقرأ وقد لفّه حزن شفيف مخطط النجوم ازاء السماء الشاحبة، الاشراق الهادئ ازاء كتلة الأشجار السود المتراكمة كالغيوم. لقد ذكّره الطاووس، أجل، فقد أسدل الليل ستارة ثانية، الوقت متأخر، وعليه أن ينام الآن قطعاً وبأي ثمن. ولو استطاع النوم حقاً ليالي معدودة متعاقبة نوماً عميقاً، ست ساعات أو ثماني، ربما كان بإمكانه أن يستعيد عافيته، وأن تطيعه عيناه وتبصرا مرة أخرى، ويكون قلبه اكثر هدوءاً وصدغاه بلا ألم. ولكن حينذاك سيكون هذا الصيف قد انقضى، الحلم الصيفي الوامض المجنون، وقد أريقت معه آلاف الكؤوس التي لم تُشرب، وخبت آلاف النظرات الولهى التي لم تُرَ، انطفأت من دون أن ترى آلاف الصور التي لا يمكن استعادتها!

استند بجبهته وعينيه المتوجعتين على الحاجز الحديدي البارد ممّا أنعشه لحظةً. ربّما بعد سنة أو أقلّ، ستعمى هاتان العينان وستنطفئ النيران في قلبه. كلا، ما من بشر باستطاعته تحمّل حياته الملتهبة طويلاً، حتى هو لا يستطيع، حتى كلنكسر نفسه الذي كان بعشرة

أرواح. لا أحد يستطيع أن يستمرّ طويلاً، مضيئة شمعاته طوال الليل والنهار، مشتعلة براكينه كلّها. لا أحد يستطيع أن يبقى متوهّجاً ليلاً ونهاراً، يعمل على نحو متّقد ساعات طويلة كلّ نهار منفقاً ساعات طويلة كل ليلة في تفكير متّقد، يتمتّع أبداً، يبدع أبداً، يبقى على حواسّه وأعصابه يقظة مستنفرة أبداً مثل قصر تعزف الموسيقى خلف كل نافذة فيه نهاراً بعد آخر، في حين تتلألأ أضواء ألف شمعة ليلة بعد أخرى. سيبلغ الأمر نهايته، فقد بدد قدراً كبيراً من القوة، وأتلف بصره، واستنزف الكثير من حياته.

ضحك فجاة ثم تمطى. تذّكر انّه غالباً ما تملّكه هذا الشعور من قبل، وراودته هذه الأفكار والمخاوف من قبل. كان قد أمضى كلّ الأوقات الحسنة المثمرة المتوقّدة من حياته، حتى في شبابه، على هذا النحو، ووصل الليل بالنهار في جهد منهك، يتملّكه شعور نصفه ابتهاج، والنصف الآخر حزن الاسراف الوحشي، الشعور باحراق ذاته وبتوق شديد متلهّف لشرب الكأس حتى الثمالة وفزع عميق خفي من النهاية. لطالما عاش هكذا من قبل. وطالما أفرغ الكأس، وطالما أحرقته السنة اللهب العالية المنقضّة. بعض الأحيان كانت هذه النوبات قد انتهت بهدوء، بما يشبه سباتاً عميقاً لاواعياً. وأحياناً أخرى كان التراخي رهيباً، ودماراً بغير إحساس، وألماً لا يطاق، وأطباء، وزهداً خزيناً، وانتصاراً للوهن. ومن المسلّم به كانت، كل مرّة، نهاية مثل وقت التوتر هذا أسوأ وأكثر ظلمة وتمزيقاً على نحو مضطرد. إلا أنه دائماً ما خرج سالماً من حالات الاكتئاب هذه، وبعد أسابيع أو بعد المعاناة أو الذهول، كان الانبعاث يأتي، نار جديدة، اندلاع جديد

للبراكين المندثرة، وأعمال جديدة ذات عاطفة أكثر اتقاداً، نوبة جنون متوهِّجة جديدة. ذلك ما كان عليه الأمر، فكانت أوقات العذاب والخمول، وأوقات الألم المبرح ما بينها تتلاشى ويطويها النسيان. كان الأمر حسناً على هذا النحو. وهذه المرة ستنقضي كذلك كما انقضت دائماً.

فكّر مبتسماً بجينا التي التقاها هذا المساء ودارت حولها أفكاره بمحبّة طوال طريقه سارياً إلى البيت ليلاً. ما أجمل هذه الفتاة، يا لدفئها باندفاعها الغرّ المتهيِّب. همهم برقّة وعبث كما لو كان يهمس في أذنها مرّة أخرى: «جينا، جينا، كاراجينا، كارينا جينا، بيلا جينا»(٥).

عاد إلى غرفته فأشعل الضوء ثانية، واستلّ كتاب شعر من مجموعة صغيرة للكتب تراكمت عشوائياً، إذ كانت قد خطرت له قصيدة. أو جزء من قصيدة بدا له رائعاً، فبحث طويلاً قبل أن يجده:

لا تتركني الآن لحزني،

يا حبيبي،

لا تدعني والليل.

آه، يا من أنت زنادي، وشمعتي،

يا من أنت شمسي، ونوري.

فارتشف الخمرة الداكنة لهذه الكلمات بمتعة كبيرة. ما

---

(٥) ايطالية، تعني: عزيزتي جينا، جينا الجميلة.

أروعها، يا لرقتها وسحرها: آه، يا من أنت شمعتي، ويا من أنت شمسي.

خطا مبتسماً جيئة وذهاباً أمام النوافذ العالية وهو يلقي الشعر، فيأمره بالذهاب إلى جينا البعيدة: «آه، يا من أنت نوري!» فكست الرقة صوته بالحزن.؟

ثم فتح حافظة أوراقه التي حملها معه طول المساء بعد يوم عمل طويل، ففتح كرّاسة التخطيطات، ونظر إلى الصفحات الأخيرة، تلك التي رسمها بالأمس واليوم. كان فيها الجبل المخروطي الشكل بالظلال العميقة لحافاته الصخرية، وكان قد رسمه حتى بدا شديد الشبه بقناع ذي ملامح مجنونة، فكأن الجبل يصرخ فينفلق ألماً. وكان فيها الينبوع الحجري الصغير، شبه دائرة على المنحدر الجبلي، وقوس البناء غطته الظلال المعتمة وفوقه تتألق شجرة رمّان مزهرة. كلّ ذلك كان له وحده ليقرأه، كتابة فيها لغز له، وتدويناً متلهّفاً عاجلاً للحظَة القائمة، استرجاعاً منتزعاً بسرعة لكل لحظة تنشد فيها الطبيعةَ من جديد مع قلبه بصوت عالٍ وانسجام. والآن أتت التخطيطات الملوّنة الكبرى، صفحات بيض بمساحات مشرقة من الألوان المائية: الفيلا الحمراء وسط الغابة بتوهُّج ناري كالياقوتة وسط المخمل الأخضر والجسر الحديدي.

في كاستيليا أحمر إزاء الجبل الأخضر المزرقّ، وبجانبه السدّ البنفسجي والطريق الوردي، إضافة إلى ذلك: مدخنة معمل الطابوق، صاروخ أحمر إزاء خضرة الأشجار الهادئة الفاتحة، واللوحة الارشادية الزرقاء، وسماء بنفسجية مشرقة مع الغيمة الكثيفة البيضاء كالفولاذ المكوّر. كانت هذه الصفحة جيّدة يمكن

الابقاء عليها. في حين كان الأمر أقلّ مستوى مع طريق العربات إلى الاسطبل، فالنبي المحمّر إزاء السماء بلون الفولاذ كان ملائماً، لقد كان ينطق ويتكلّم، لكن اللوحة كانت نصف كاملة فحسب. كان ضوء الشمس ينعكس على الورق ممّا جعل عينيه توجعانه على نحو يبعث على الجنون، فظل بعد ذلك يغسل وجهه مدّة طويلة بماء الغدير. حسناً، كان هناك الأحمر البني إزاء الأزرق المعدني الخبيث، وكان ذلك جيّداً، فلم يكن ثمة أدنى فارق، ليس ثمة أدنى اهتزاز نتيجة الخطأ أو الحذف. ولولا الأحمر الهندي لم يكن باستطاعته أن ينجح في ذلك، وهنا، في هذا المجال، تكمن الأسرار. إنّ أشكال الطبيعة، قمّتها وقعرها، خصبها وشحّتها، يمكن ان تُقلب، إذ يمكنك نبذ كل الطرق المألوفة في محاكاة الطبيعة، يمكنك طبعاً تزييف الألوان كذلك، ويمكنك أن تكثِّفها، وأن تقلِّلها، وأن تترجمها بمئات الأساليب المختلفة، ولكن إذا أردت استخدام اللون لخلق طبيعة خياليّة، فالذي يهمّ أن الألوان القليلة تستخدم بدقّة متناهية بصيغ العلاقات نفسها، بالتوتر نفسه فيما بينها، كما هي الحال في الطبيعة تماماً. وهنا بقيت اتكالياً، هنا بقيت متَّبعاً المذهب الطبيعي حتى لو استبدلت الرمادي بالبرتقالي والأسود بالأحمر القاني.

وهكذا إذاً تبدّد يوم آخر، وكانت حصيلته ضئيلة، دراسة مدخنة المعمل، والتخطيط المتعجّل الموجز باللونين الأحمر والأزرق، وربّما تخطيط الينبوع. إذا كان الغد غائماً فسيذهب إلى كارابينا، فهناك الرواق ذو الأعمدة حيث كانت النساء تأتي لغسل الملابس. قد يهطل المطر غداً مرّة أخرى، حينها يبقى في البيت ويبدأ العمل في صورة الجدول الصغير بالألوان الزيتيّة. والآن، إلى الفراش، فمرّة أخرى تجاوز الوقت الساعة الواحدة.

في غرفة النوم نضى عنه قميصه ورشق بالماء كتفيه، فتقاطر الماء منهما على الأرضية ذات البلاط الأحمر. قفز إلى سريره العالي وأطفأ الضوء. بدا جبل مونت سالوت[٦] الحالك من النافذة، ألف مرّة كان كلنكسر قد تتبع خطوطه وهو في سريره. نَعْقُ بوم من المكمن الشجري عميقٌ ومجوفٌ، كما النوم، كما النسيان.

أغمض عينيه وفكّر في جينا، وفي الرواق ذي الأعمدة بأوعية غسيله. يا الله، كانت آلاف مؤلّفة من الأشياء تنتظر، الاف مؤلّفة من الكؤوس المهيّأة قد اترعت، ما من شيء على الأرض كان عليه أن لا يرسمه، ما من امرأة في العالم كان عليه أن لا يحبها. لماذا كان الزمن موجوداً؟ لماذا يكون دائماً هذا التعاقب الأبله للأشياء، واحداً إثر آخر، ولـمَ لا يكون توقيتاً هادراً مفرطاً؟ لماذا كان يستلقي في هذا الوقت وحيداً في فراشه ثانية، كالأرمل، كالرجل العجوز؟ يمكنك التمتّع ويمكنك الإبداع طوال هذه الحياة القصيرة وعلى الرغم من ذلك فإنّك، في أحسن الأحوال، دائماً كنت تغنّي مجرّد أغنية واحدة بعد أخرى. فالسمفونية التامة بكاملها، بكل أصواتها وآلاتها المئة لم تُعزف في وقت واحد قط.

منذ عهد بعيد كان كلنكسر، في سن الثانية عشرة، كلنكسر ذا الأرواح العشرة. فقد كان الأولاد يلعبون لعبة اللصوص، وكلّ لصّ بعشرة أرواح. وكلّ مرّة كان الخصم يمسكك أو يصيبك برمية من رمحه، كنت تفقد روحاً واحدة. إلا أن اللعبة كانت تستمر ما دامت تبقى لديك ست أرواح أو ثلاث أو حتى واحدة.

(٦) تعني كلمة (مونت) في حد ذاته جبل، لكنّها أصبحت جزءاً من اسم العلم فآثرت الابقاء عليها. (المترجم).

وتخرج من اللعبة فحسب عندما ما تفقد الروح العاشرة. لكنّه، أي كلنكسر، جعل من الأمر مسألة فخر، في أن يفوز باللعبة من دون أن يفقد أي روح من أرواحه العشرة، ويعدّه أمراً مخزياً إذا انتهت اللعبة ولديه تسعة ارواح أو سبعة. ذلك ما كان عليه في صباه، في تلك المرحلة اللامعقولة حينما لم يكن في العالم شيء مستحيل. وما من شيء في العالم صعب، حين كان الناس كلّهم يحبّون كلنكسر، ويأمر كلنكسر كلّ الناس، ويملك كلنكسر كلّ شيء. وهكذا مضى يعيش دوماً بعشرة أرواح. وعلى الرغم من أن السمفونية الهادرة المفرطة الكاملة لا يمكن الوصول إليها أبداً، إلا أن أغنيته لم تكن ذات صوت منفرد فَقَد حلاوته. فقد كان لديه بضعُ أوتار إضافيّة لقوسه أكثر ممّا لدى الآخرين، وبضع نشاطات متّقدة إضافيّة، وبضع قطع نقود إضافيّة في كيس نقوده، وبضع جياد إضافية لعربته. الحمد لله.

ما كان أشدّ تمام السكون المعتم للحديقة ونبضه بالحياة، كأنه تنفّس امرأة نائمة. كيف زعق الطاووس. كيف استعرت النار في صدره، كيف خفق قلبه وبكى، وعانى، وابتهج، وتفطّر حزناً، لقد كان صيفاً جميلاً، على أيّة حال، في الأعالي هنا، في كاستنيتا. لقد عاش حياة رائعة في خرائبه القديمة الفخمة، وأطلّ على نحو رائع ناظراً إلى أظهر اليرقات في بساتين الكستناء التي لا تعدّ ولا تحصى أسفل الجبل. كان أمراً ممتعاً، أن يهبط متلهّفاً من حين لآخر من عالم الغابات والقلاع القديم المهيب هذا فينظر إلى اللعب المبهجة الزاهية الألوان أسفل الجبل ويرسمها ببهرجتها المرحة الرائعة: الطواويس المتبخترة، النساء، القساوسة، السيارات، وما كان أكثر هذا الشعور روعة وتعذيباً في صدره، هو هذا الحب

والتوق المرفوف لمرأى الأشرطة الزاهية للحياة وخرقها، هذا الدافع الوحشي العذب لأن يرى ويجسّد معرفته العميقة بصبيانيّة كلّ ما فعل وتفاهته، تحت غطاء شفاف لكنّه على نحو سريّ في الوقت نفسه.

تبدّد ليل الصيف القصير محموماً. تصاعد الضباب من أعماق الوادي الخَضر، وجاش النسغ في مائة ألف شجرة، وتضخّم مائة ألف حلم أثَناء غفوة كلنكسر، وسارت روحه بخطى واسعة في قاعة مرايا حياته حيث تضاعفت كل الصور، وكلّ مرّة التقت إحداهن الأخرى بوجوه جديدة ومعان جديدة ودخلت في ارتباطات جديدة كما لو أنّ السماء كانت تُرجّ في قدح زهر.

من بين الكثير من الأحلام كان أحدها قد أسعده وأثاره كثيراً، إذ رأى نفسه مضطجعاً في غابة، وفي حجره امرأة ذات شعر أحمر، وتتّكئ على كتفه امرأة ذات شعر أسود، وأخرى جثت إلى جانبه وقد أمسكت بيده مقبّلة أصابعه، وفي كلّ مكان حوله نساء وفتيات، بعضهنّ ما زلن أطفالاً ذوات سيقان طويلة نحيلة، بعضهنّ صغيرات السن، وأخريات ناضجات تبدو على وجوههنّ الضجرة علامات المعرفة والارهاق، وكلهنّ كنّ يحببنه، وكلهنّ كنّ يُردن أن يحبّهن. ثم نشب عراك بينهن، فغرزت ذات الشعر الأحمر يداً هائجة في الشعر الأسود للأخرى وألقتها أرضاً، وأُلقيت هي الأخرى أرضاً، وسقطن جميعاً بعضهنّ فوق بعض، وكلّ واحدة تصرخ وتمزّق وتعضّ، وكلّ واحدة تصب الأذى وتعاني الألم. دوّى الضحك وصرخات الغضب وولولات الألم المبرح، وسال الدم في كل مكان، وانغرزت الأظافر مدماة في اللحم المكتنز.

استيقظ كلنكسر بضع دقائق يغشاه شعور بالأسى والحزن، وحدّق بعينين متّسعتين إلى الفجوة المضيئة في الجدار. كانت وجوه النساء المتأهّبات لا تزال لابثة، فتعرّف على الكثير منهن وسمّاهن: نينا، هيرمين، اليزابيث، جينا، أيدث، برتا، وقال بصوت أجشّ لحق به من الحلم: «توقّفن، أيتها الصغيرات، أنتنّ تعرفن أنكن تكذبن، وتعرفن أنكنّ تخدعنني، لا أحد منكنّ سواي أنا، أنا من عليكن تمزيقه إرباً!».

لويس

كان لويس القاسي قد حضر على نحو غير متوقّع، كان هناك فجأة، صديق كلنكسر القديم، المسافر، الجوّال الذي لا يمكن التنبّؤ بمقدمه، الذي يعيش في عربات السكك الحديد، ويحمل مرسمه في حقيبة الظهر. تقطّرت أوقات طيّبة تلك الأيام من غير توقّع، وهبّت رياح خير، فرسما معاً فوق جبل الزيتون، وفي كارتاغو.

قال لويس: «إني أتساءل إن كان لأمور الرسم هذه أية قيمة حقيقيّة»، قال ذلك وهو يضطجع عارياً على العشب فوق جبل الزيتون وقد أحمرّ ظهره من الشمس، «أنت تعلم يا صديقي إنّنا نرسم فحسب لعدم وجود شيء لديك حينها، وطعامك المفضّل في صحنك، فلن تبدي اهتماماً بهذه اللعبة الصبيانيّة التي لا معنى لها. للطبيعة عشرة آلاف لون، ونحن وضعناها في أذهاننا فقلّلنا طيف الألوان إلى عشرين فحسب، ذلك هو الرسم. إننا لن نبلغ الرضا أبداً، وعلينا أن نساعد النقّاد على كسب رزقهم أوّلاً وقبل كلّ شيء. ومن الناحية الأخرى، كارو ميو(٧)، فإن

(٧) ايطالية تعني: يا عزيزتي (المترجم).

حساء سمك[٨]، ومعه خمرة بُرغندية[٩] صرف فاترة ثم بيكاتا ميلانيز، كمثرى، وكوركونزولا، حلوى، وقهوة تركية، تلك هي الحقائق، سيدي العزيز، تلك هي القيم! ما أسوأ أكل الناس هنا في فلسطينك[١٠]! آآ، أتمنى لو كنت في شجرة كرز فتنمو الكرزات في فمي، وفوقي مباشرة على السلّم تقف الفتاة المفعمة بالحيوية التي لوّحت بشرتها الشمس، التي التقينا بها صباحاً. كفّ عن الرسم يا كلنكسر! إني إدعوك إلى وجبة دسمة في لاغونو، فالوقت أوشك أن يحين.

سأله كلنكسر وقد اغمض عينيه نصف اغماضة: «هل أنت جاد؟».

«نعم، سوى أنّ عليّ أوّلاً الاسراع إلى المحطة. إسمع لكي أكون صادقاً، فلقد أبرقت إلى صديقة لي باني اتحرّق شوقاً، وقد تصل بقطار الحادية عشرة».

انتزع كلنكسر وهو يضحك التخطيط الأوّلي من حاملة اللوحة ممزّقاً إياه: «أنت على حقّ، يا ولدي، فلنذهب إلى لاغونو! إلبس قميصك يا لويجي، ففي السلوك هناك قدر كبير من البراءة، ولكن للأسف لا يمكنك أن تسير في المدينة عارياً».

ذهبا إلى المدينة، واتجها إلى المحطة، فوصلت امرأة جميلة،

---

(٨) Marseilles Bonillabaisse: حساء كثيف من أنواع مختلفة من السمك الطازج والأعشاب العطرية والخضروات يطهى بالماء والزيت وغالباً بالنبيذ ويعود لمقاطعة بروفانس (المترجم).

(٩) خمرة من بُرغنديا في فرنسا (المترجم)

(١٠) احسب ان الكاتب يلمح إلى المكان الذي يتطلع إليه باعتباره مقصداً أو جنة أو ما شابه. (المترجم).

أكلوا بشهيَّة في أحد المطاعم. وكان كلنكسر، الذي قد أصابه النسيان أثناء الأشهر التي قضاها في الريف، متعجّباً من انّ كلّ هذه الأشياء لا تزال موجودة، هذه الأشياء العزيزة البهيجة: سمك الترويت، لحم الخنزير المدخّن، الهليون[١١]، خمرة الشبلية[١٢]، فاليز دول، الخمرة البنديكتية[١٣].

بعد تناول الوجبة ركب الثلاثة جميعاً سكّة الحديد المعلّقة مخترقة المدينة الشاهقة مارة بين البيوت تماماً، بمحاذاة نوافذها وحدائقها المعلّقة. كان أمراً رائعاً، فبقوا في مقاعدهم وهبطوا ثانية ثم صعدوا وهبطوا مرّة أخرى. كان العالم غير مالوف وجميلاً جمالاً غريباً، وذا ألوان زاهية جداً، مريباً بعض الشيء، بعيد الاحتمال بعض الشيء، إلا إنّه رائع. بيد أن كلنكسر كان محرجاً قليلاً، فاتخذ سيماء عدم الاكتراث، لأنه لم يرد أن يُغرَم بصديقة لويجي الجميلة. نزلوا عند إحدى المقاهي، وساروا في الحديقة العامّة التي اقفرت في حرّ الظهيرة، فاستلقوا إلى جانب الماء، تحت الأشجار الضخمة. شاهدوا أشياء كثيرة تستحقّ الرسم: بيوتاً حمراء كما الجواهر رصّعت الخضرة الداكنة، أشجاراً ثعبانيّة[١٤] وأخرى دخانيّة[١٥] ذبلت أوراقها فأصبحت زرقاء وبنيّةً.

قال كلنكسر: «لقد رسمت أشياء مفرحة وبهيجة يا لويجي،

---

(١١) نبات نوع من أنواع الخضراوات من فصيلة الزنبقيات. (المترجم)
(١٢) ضرب من الخمرة الفرنسية. (المترجم).
(١٣) خمرة منسوبة إلى الرهبان البنديكتيين أتباع القديس بنديكت. (المترجم).
(١٤) متسلق من عائلة اللوغانيا ينمو في جاوه وجنوب الهند. (المترجم)
(١٥) شجيرات تنمو جنوب أوروبا وفي آسيا الصغرى، لها زهور تعطي ضوء وانطباعاً بالدخان. (المترجم)

أشياء أنا مولع بها: ساريات الإعلام، المهرّجون، السيرك، ولكن في نظري فإنّ الأغلى من بينها هي بقعة محدّدة في لوحتك دوّامة الخيل بعد هبوط الظلام. كما تعرف، ففي وقت متأخّر من الليل، بعيداً فوق الخيمة البنفسجيّة، بعيداً عن كلّ الأضواء يقف علم صغير ساكن ذو لون ورديّ فاتح، جميل جداً، هادئ جداً، وحيد جداً، وحيد وحدة فظيعة! يشبه قصيدة كتبها (لي بو) أو (بول فيرلين)[١٦]. كل حزن العالم وإذعانه يكمن في ذلك العلم الورديّ الساذج الصغير. إني اعتبر ذلك العلم إحدى إنجازاتك الكبيرة».

«أجل، إنّي أعرف مقدار حبّك له».

«أنت نفسك تحبّه. إسمع، لو أنّك لم ترسم بضعة أشياء مثله، فكلّ الطعام الفاخر والرسم والخمر والنساء والقهوة سيعود عليك بقليل من النفع، إذ ستكون بائساً، لكن المسألة إنّك موسر وشخص طيّب للغاية يُعجَب به الناس. أنت تعلم، يا لويجي، غالباً ما أفكّر مثلك، ذلك أن فنّنا مجرّد بديل، بديل مؤلم يُشترى عشرات المرّات بسعر باهظ جداً مقابل حياة مضيّعة، وبهيمية مفتقدة، وحبّ ضائع، لكنّه في الحقيقة ليس كذلك، إنّه مختلف تماماً، وإذا اعتبرنا أمور العقل مجرّد بدائل تافهة لافتقاد الحسّية فإنّنا نغالي في تقدير أمور الحواس. إن الحسيّة لا تفوق الروحيّة مقدار شعرة، وتبقى الحال نفسها إذا انعكس الأمر. إنّها كلّ واحد، فكلّ شيء حسن على نحو متساو. سواء عانقت امرأة أم كتبت قصيدة فالأمر سيّان، ما دام الشيء الرئيس يكمن فيه، الحب، الاتقاد، العاطفة،

---

(١٦) بول فيرلين (١٨٤٤ ـ ١٨٩٦) شاعر فرنسي، يعدّ أحد روّاد المدرسة الرمزيّة (المترجم)

فلا يهم سواء كنت راهباً على جبل مونت آتوس[١٧] أو رجلاً لاهياً يمتّع نفسه في باريس».

نظر لويس ببطء نحوه وعيناه ساخرتان: «يا ولدي، إنّك تغدو عندي مثيراً للاعجاب جدّاً».

تجوّلا في المنطقة مع رفيقتهم الجميلة، كلاهما كان بارعاً في المشاهدة وذلكا كلّ ما كان بإمكانهم. ومن مجموعة من بعض مدن وقرى شاهدا روما، واليابان، والبحار الجنوبيّة، ومحياً بأصابع عابثة الصور الخادعة مرّة أخرى، وأوقدت نزواتهم نجوماً في السماء ثم أطفأتها ثانية. وكانا أثناء الليالي الخصيبة الباذخة يرميان بكراتهما المضيئة إلى الأعلى. لقد كان العا لم فقاعة صابون، أوبرا، هراء بهيج.

حلّق لويس العصفور على درّاجته في النواحي ذات التلال، ذهب هنا وهناك، بينما كان كلنكسر يرسم. بدّد كلنكسر أياماً كثيرة جداً. ثم عاد فجلس خارج الدار عازماً على الرسم، أما لويس فلم يكن راغباً في الرسم، إذ رحل فجأة مع صديقته، وأرسل بطاقة بريديّة من مكان بعيد. وفجأة عاد، بعد ما كان كلنكسر قد تخلّى عن ترقّبه وحسب مفقوداً. وقف عند الباب مفتوح القميص وعلى رأسه قبّعة من قشّ كأنّه لم يكن غائباً، فعبَّ كلنكسر مرّة أخرى شراب الصداقة من أعذب كؤوس شبابه. كان لديه أصدقاء كثيرون، الكثير منهم أحبّوه، إذ كان قد وهب

---

(١٧) مونت آتوس: القمّة الشرقيّة من ثلاثة جبال في شبه جزيرة كاليسيدس شمال شرقي اليونان، وكانت موقعاً لجمهورية مستقلّة من ٢٠ ديراً للرهبان (المترجم)

الشيء الكثير لكثير من الناس، وفتح أبواب قلبه الطائش للكثير من الناس. لكن اثنين من أصدقائه فحسب سمعا هذا الصيف صرخة قلبه القديمة تخرج من بين شفتيه: الرسام لويس والكاتب هيرمان الذي يدعى (توفو).

أياماً كثيرة كان لويس يجلس في الحقل على كرسيّ الرسم، في ظلّ شجرة الكمثرى، وظلّ شجرة الخوخ ولم يكن يرسم. كان يجلس ويفكّر، وقد احتفظ بالورق مثبتاً على حامل اللوحة ويكتب، يكتب كثيراً، يكتب رسائل كثيرة. هل أن الناس الذين يكتبون رسائل كثيرة جدّاً سعداء؟ كان يكتب بحماسة ونشاط، لويس اللامكترث، أحياناً تعلق عيناه بانهماك بالورقة ساعات في كلّ مرة. وكان الكثير ممّا يخفيه يمور في داخله، وكان كلنكسر يحبّه لذلك.

أما كلنكسر فكان يسلك سلوكاً مختلفاً، فلم يكن يستطيع البقاء صامتاً. ولا يستطيع إخفاء ما يكمن في قلبه، وكان يطلع أصدقاءه الحميمين على الوخزات الخفيّة في حياته. غالباً ما كان يعاني القلق والسوداوية [١٨]، وغالباً ما كان يقبع مكبّلاً ومكمّماً في زنزانة الظلمة. بعض الأحيان ترمي الفترة الأولى من حياته بظلالها على أيامه فتتّشح بالكآبة. حينها كانت رؤية وجه لويس تريحه كثيراً، فعتدئذ كان يبث إليه مشاعره أحياناً.

إلا أن لويس لم يكن يحب رؤية مواطن الضعف هذه، إذ كانت

(١٨) السوداوية Melancholia: حالة مرضية تتّسم بالكآبة والحزن، وعدم التفكير والحركة. وتسمى كذلك داء السواد، وجنون الصمت (المترجم).

تؤلمه وتتطلّب تعاطفاً. أما كلنكسر فقد دأب على فتح قلبه لصديقه وأدرك بعد فوات الأوان أنه بذلك كان يفقده.

بدأ لويس يتحدّث من جديد عن الرحيل، وأدرك كلنكسر أنه يستطيع الامساك به بضعة أيام فحسب، ثلاثة أيام، وربما خمسة. ثم فجأة يريه لويس حقائبه المهيّأة ويغادر، ولا يعود مدة طويلة. ما كان أقصر الحياة، ما كان أشد تلاشي كلّ شيء. كان لويس الوحيد بين أصدقائه، الذي يفهم فنّه فهماً كاملاً، ويقترب فنّه منه ويوازيه. والآن فقد أفسد الأمور مع صديقه الأوحد هذا، جفاه وأغاظه، بسبب الوهن الأحمق والتواني فحسب، وبسبب الدافع الطفولي غير اللائق ليوفّر العناء على نفسه، ليكشف الأسرار، ولا يكترث بالكرامة. ما كان أسخف ذلك، ما كان أشدّ صبيانيته. وهكذا قرّع كلنكسر نفسه ـ بعد فوات الأوان.

في اليوم الأخير تسكّعا معاً في الوديان الذهبيّة. كان لويس ذا مزاج رائق فالرحيل كان ربيع الحياة لقلبه ـ قلب الطير المهاجر ـ وافقه كلنكسر في مزاجه، ومرّة أخرى وجدا النغمة القديمة البسيطة المرحة الساخرة، فلم يتركاها تفلت هذه المرّة. مساءً جلسا في حديقة الحانة، فتناولا سمكاً شوي لهما خصيصاً، وتناولا أرزاً وفطراً معه، ومع الخوخ شربا المرسكين(١٩).

سأله كلنكسر: «هل أنت مرتبط غداً؟».

ـ «لا أدري».

---

(١٩) المرسكين: شراب مُسكر يصنع من عصير الكرز البرّي المرّ المخمّر. (المترجم)

ـ «هل سترافق تلك المرأة الجميلة؟».

ـ «نعم، محتمل، من يدري؟ لا تسأل أسئلة أكثر ممّا يجب. والآن في النهاية، دعنا نشرب مرّة أخرى من النبيذ الأبيض الجيّد وأفضل النوشاتيل».

شربا، وفجأة صاح لويس: «إنّه لأمر حسن أنّي أغادر، أيّها الفقمة العجوز. أحياناً عندما أجلس إلى جانبك هكذا، كما نجلس الآن مثلاً، يعنّ لي أمر سخيف للغاية، انْ افكّر انّ في هذا المكان يجلس معاً الرسامان الوحيدان اللذان يستطيع أن يفتخر بهما بلدنا الطيّب، ثم اشعر شعوراً فظيعاً في ركبتيّ، كما لو أنّنا، نحن الاثنين، قد شُبكنا بالبرونز وقد وقفنا يداً بيد في نُصب، مثل غوته وشيلر[٢٠]، كما تعرف. على أيّة حال، لم تكن غلَطتهما أنّهما محكوم عليهما بالوقوف هناك إلى الأبد يمسك أحدهما بيد الآخر، وقد أصبحا تدريجياً قبيحين ومزعجين جداً لنا. ربما كانا شخصين محترمين جداً ـ قبل سنين خلت قرأت مسرحية لشيلر كانت جيّدة جداً. ومع ذلك، ما حدث له الآن، أنه أصبح نصباً عليه الوقوف إلى جانب توأمه السيامي، وترى أعمالهما التي جُمعت تقف على الرفوف وتسمع تحليلات لهما في المدارس. إنّه لأمر شنيع. تخيّل أستاذاً، بعد مائة عام، يعظُ طلابه: كلنكسر، ولد عام ١٨٧٧، ومعاصره لويس الملقّب بالنَهم، مجدِّدان في الرسم، عُرِفا بالتحرّر من طبيعة اللون، وعندما ندرس هذين الفنانين عن

---

(٢٠) غوته: جوهان فلفغانغ غوته (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢) من أعظم شعراء الألمان. (المترجم)
شيلر: جوهان شيلر (١٧٥٩ ـ ١٨٠٥) شاعر وكاتب مسرحي ألماني (المترجم).

كثب، نجد ثلاث مراحل متميّزة تميزاً واضحاً! أفضل أن أرمي بنفسي تحت القطار الآن وها هنا!».

ـ «سيكون للأمر معنى أعمق إذا رمينا الأساتذة تحته».

ـ «ليس ثمة قطارات بهذا الحجم، فتقدّمنا التكنولوجي محدود النطاق».

كانت النجوم قد بزغت، فجأة تبادل لويس الانخاب مع صديقه.

ـ «حسناً، نخب واحد إضافي، ودعنا نعبّه عباً، ثم سأركب دراجتي ووداعاً. لنكفّ عن الافتراق الطويل. بصحتك، كلنكسر!».

في الحديقة ركب لويس دراجته، لوّح بقبعته، ورحل. كان لويس في الصين، كان لويس أسطورة.

ابتسم كلنكسر ابتسامة حزينة، ما كان أشدّ حبه لهذا الطائر الرحال! وقف مدّة طويلة على الحصباء في حديقة الحانة يحدّق إلى الأسفل في الشارع الخالي.

يوم الذهاب إلى كازينو

انطلق كلنكسر برفقة أصدقائه من بارينغو ومع أغوستو وايرسيليا في مسيرته إلى كازينو، فانحدروا في الصباح الباكر بين أشجار الاسيبيريا الفوّاحة الشذا، وبيوت العناكب النديّة المرتعشة عند احفّة الغابة، نزولاً خلال الغابة المنحدرة الدافئة إلى وادي بامبيبو حيث رقدت إلى جانب الطريق الأصفر، بيوت صفر مشرقة وانحنت إلى الأمام شبه ميتة وقد سفعتها أيام الصيف. وإلى جانب قاع الغدير الجاف فرش الصفصاف الأبيض اللمّاع أجنحته الثقيلة فوق المروج الذهبية. انطلق الأصدقاء بخفّة مثل فرقة زاهية الألوان منحدرين على الطريق الوردي ومن خلال الخضرة المضببة للوادي: الرجال بالأبيض والأصفر من الكتان والحرير، والنساء بالأبيض والوردي، ومظلّة ايرسيليا الصغيرة ذات اللون الأخضر الفيرونيزي تلتمع كالجوهرة في حلقة سحرية.

علّق الدكتور على نحو حزين بصوته الحنون: «إنه لأمر يدعو للأسف، يا كلنكسر، فألوانك المائية الرائعة ستكون جميعاً بيضاء في غضون عشر سنوات، إنّ هذه الألوان التي تحبّها كثيراً لا تتّصف بالدوام».

قال كلنكسر: «أجل، والأسوأ، يا دكتور، أنّ شعرك البنّي

الجميل سيكون كلّه أبيض في غضون عشر سنوات، وبعد ذلك بمدّة وجيزة ستقبع كل عظامنا الطيبة المرحة في حفرة في الأرض وبضمْنها، للأسف، عظامك الجميلة المفعمة بالصحة يا ايرسيليا. يا أَصدقائي، دعونا لا ننحو منحى أن نصبح ذوي حصافة في وقت متأخّر للغاية من حياتنا. يا هيرمان، كيف يعبّر (لي بو) عن هذا؟».

وقف هيرمان الشاعر دون حراك وأنشد:

كومضة برق تمرّ الحياة

لا يكاد وهجها يلبث فيُرى.

وبينما الأرض والسماء ساكنتان

سرعان ما تخلق الأزمان المتغيّرة

امام ناظِرَيْ الإنسان.

أنت يا من تحتضن كأسك المترعة ولا تشرب،

اخبرني مَنْ ما زلت تنتظر.

قال كلنكسر: «لا، اعني القصيدة الأخرى، المقفّاة، عن الشعر الذي كان لا يزال أسود عند الصباح...».

فتلا هيرمان في الحال:

هذا الصباح حسب

تألق شعرك حريرياً أسود،

فزركشه المساء بندف الثلج.

إن لم تكابد أيّ عذاب،
احمل كأسك
وادعُ القمر نديماً لك.

ضحك كلنكسر من صميم قلبه بصوته الأجشّ بعض الشيء.

«يا لطيبة لي بو العجوز! لقد كان صاحب التماعات، كان يعرف أشياء شتى. نحن نعرف أشياء شتّى كذلك ـ فهو أخونا الكبير الحكيم. إنّ هذا اليوم المعربد كان ليسعده. إنّه اليوم الرائع المناسب تماماً ليموت المرء مثلما مات لي بو، مساءً وفي قارب وسط النهر الهادئ. سترون، كلّ شيء سيكون رائعاً اليوم».

سألت مارثا الفنّانة: «أيّ ميتة مات لي بو وسط النهر؟».

لكن ايرسيليا قاطعتها بصوتها الحبيب العميق: «كفّوا عن ذلك حالاً، سأمقت أيَّ شخص يتفوّه بكلمة أخرى عن الموت والممات، فينيسكا أديسو؟، بروتو كلنكسر[٢١]!».

تقدّم كلنكسر نحوها ضاحكاً: «ما أحقّك، بامبينا[٢٢]! إن قلت كلمة أخرى عن الموت، فلك أن تغرزي مظلّتك في عينيّ. ولكن بجدّ، إنّه ليوم مجيد يا أعزائي. اليوم يغنّي طير، طير من قصّة خرافيّة ـ سمعتها مرة قبل هذا الصباح. وتهب اليوم رياح، رياح من قصّة خرافيّة، طفل السماء الذي يوقظ الأميرات الغافيات،

(٢١) ايطالية تعني: كف حالاً، أيها القبيح كلنكسر. (المترجم)
(٢٢) ايطالية تعني: يا طفلتي. (المترجم)

ويطيّر العقل من رؤوس الناس. وتتفتح اليوم زهرة، زهرة من قصة خرافية، زرقاء تتفتّح مرّة واحدة في الحياة ومن يقطفها بفوز بالنعيم».

سألت ايرسيليا الدكتور: «أكان كل ذلك يعني شيئاً»؟

فسمعها كلنكسر.

«إنّ ما كان يعنيه كلّ ذلك هو أنّ هذا اليوم لن يأتي ثانية ومن لا يأكله ويشربه ويتذوّقه ويشمّه فلن يقدّم له مرّة أخرى إلى الأبد. فالشمس لن تشعّ كما تشعّ اليوم، إنها في تآلف في السماء، اقتران مع المشتري، ومعي، ومع أغوستو وايرسيليا وجميعنا، اقتران لن يأتي ثانية أبداً، حتى في الف عام. ولذلك فإنّي أرغب في السير إلى يسارك قليلاً لأن ذلك يجلب السعد، وأحمل مظلتك الزمرديّة ـ فتحت شعاعها سيبدو رأسي مثل حجر الأوپال [٢٣]. ولكن عليك ان تقومي بدورك وتغنّي أغنية، إحدى أفضل أغانيك».

أمسك بذراع ايرسيليا، فغرقت ملامحه الحادّة برقة في ظلّ المظلّة الأخضر المزرقّ. لقد أغرم بالمظلة، فلونها الصارخ العذب كان يسعده.

أخذت إيرسيليا تغنّي:

إيل ميو بابا نو فوول

كيو سبوز آن بيرسالير [٢٤]. . . .

---

(٢٣) الاوبال حجر كريم تتغير ألوانه تغيراً جميلاً (المترجم)

(٢٤) ايطالية تعني: أبي لا يريدني أن أتزوج أحد جنود النخبة. (المترجم)

فانضمّتْ إليها الأصوات، .وساروا يغنّون باتجاه الغابة ثم داخلها حتى أصبح التسلقّ حاداً للغاية. كان الطريق يقود باتجاه حاد إلى الأعلى كالسلّم، متسلّقاً الجبل العظيم.

فامتدحها كلنكسر: «يا له من مسار مستقيم رائع تتخذه هذه الأغنية! بابا يصدّ العشاق، تماماً كما هو شأنه دائماً. فيأخذون سكّيناً تقطع جيداً ويطعنون بابا حتى الموت. لقد انتهى. يفعلون ذلك ليلاً، فلا يراهم أحد سوى القمر الذي لا يفشي سرهم، والنجوم، وهي بكماء لا تنطق، والله الذي سيغفر لهم في نهاية المطاف. ما أجمل ذلك وما أصدقه. إنّ شاعراً من زمننا الحاضر لسوف يُرجم بالحجارة لكتابته مثل هذا».

تسلّقوا الطريق الجبلي الضيّق تحت ظلال أشجار الكستناء المغسولة بالشمس وعندما نظر كلنكسر إلى الأعلى شاهد أمام وجهه الساقين النحيلتين لمارثا الفنّانة تبدو ورديتين في جوربيها الشفافين. وإن نظر خلفه كانت خضرة المظلّة تتقوّس فوق شعر إيرسيليا الجعد الأسود، وتحتها كانت ايرسيليا حريرية بنفسجية، إذ كانت البقعة الغامقة الوحيدة بين كل هؤلاء الأشخاص.

وعند بيت ريفي ملوّن بالأزرق والبرتقالي تناثرت تفاحات الصيف الساقطة على المرج، باردةً حامضة، فتذوّقوها. تحدَّثت مارثا بحماس عن نزهة على السين في باريس قبل الحرب. آآ، أجل، باريس وهناء تلك الأيام.

ـ «لن يحدث ذلك ثانية أبداً، أبداً».

فصرخ الرسّام: «وليس لزاماً أن يحدث». وهو يهزّ رأسه الذي

يشبه رأس الباشق[٢٥] هزّاً عنيفاً. «ليس لزاماً أن يأتي أيّ شيء ثانية، و لِمَ عليه ذلك؟ يا لها من أمان طفولية! لقد موَّهت الحرب كلَّ شيءَ في الماضي، فحوّلت كلّ شيء إلى جنّة، حتى أكثر الأشياء بلاهة، الأشياء التي تكون من دونها على ما يرام. حسنٌ جداً، كانت الحياة رائعة في باريس ورائعة في روما ورائعة في آرل[٢٦] ولكن هل هي أقلّ من ذلك روعة، اليوم، ها هنا، إنّ الجنة ليست في باريس ووقت السلم، إن الجنّة هنا، إنّها تسكن في الأعلى، فوق الجبل، وفي غضون ساعة سنكون وسطها، وسنكون من اللصوص الذين قيل لأحدهم: هذا اليوم ستكون معي في الجنّة».

شقّوا طريقهم من الظلال المرقشة لطريق الغابة نحو الشارع الرئيسي الفسيح المفتوح الذي كان يصعد لامعاً وحاراً في التفافات كبيرة إلى القمة. سار كلنكسر وقد حجب عينيه بنظارته الخضراء المعتمة، أخيراً خلفهم، وغالباً ما كان يتأخّر بعدهم ليشاهد الآخرين وهم يسيرون، ويرى التشكيلات الملوّنة التي كانوا يكوّنونها. تعمّد أن لا يأخذ شيئاً ليعمل به، ولا حتى دفتر ملاحظاته الصغير، ومع ذلك وقف متسمِّراً في مكانه مائة مرة وقد أثارته الصور. كان شخصه النحيل يقف وحيداً، أبيض إزاء الحصى الأحمر للطريق، عند حافة ايكة الأكاسيا. كان الصيف ينفث حروره على الجبل والضوء ينسكب عمودياً، واللون ينبعث مضاعفاً من الأعماق. وفوق أقرب الجبال التي تتناغم ألوانها

(٢٥) الباشق: طائر من الجوارح صغير الحجم نسبياً. (المترجم)

(٢٦) آرل Arles مدينة في جنوبي شرق فرنسا، تقع على نهر الرون وفيها آثار رومانية. (المترجم)

الخضر والحمر مع القرى البيض، لاحت سلاسل مزرقّة وبعدها سلاسل وسلاسل أكثر شحوباً وأكثر زرقة. وارتفعت بعيدة جداً ووهميّة، القمم البلّورية المغطاة بالثلج، وبدا فوق أشجار الأكاسيا والكستناء الجدار الصخري الجبّار لجبل مونت سالوت وقمّته المحدودبة، محمّراً وارجوانياً فاتحاً. إلا أن الأشخاص كانوا أجمل من كلّ الأشياء الأخرى. فقد كانوا كالأزهار يقفون في الضوء تحت الخضرة. وكانت المظلة الزمردية تشع مثل خنفساء هائلة، وتحتها كان شعر ايرسيليا الأسود والرسّامة البيضاء النحيفة مارثا بوجهها الوردي والآخرين جميعاً، شربهم كلنكسر شرباً بعين عطشة، لكن أفكاره كانت مع جينا، إذ لم يكن بمقدوره رؤيتها أسبوعاً آخر. كانت تجلس في المدينة تواصل العمل على الآلة الطابعة، وقلّما تمكّن من رؤيتها، وإن تمكّن فليس وحدها أبداً. ثم إنّه كان يحبّها، هي أكثر من الآخرين جميعاً، على الرغم من أنّها لا تعرف شيئاً عنه، ولم تكن تفهمه، وتنظر إليه طيراً غريباً، رسّاماً أجنبياً شهيراً. ما كان أغرب ذلك، أن تتعلق أشواقه بها وحدها، وما من حب آخر كان يطهره، لم يكن من طباعه أن يحيد بعيداً عن طريقه لأجل امرأة. ولكنّه حاد لأجل جينا، لكي يكون إلى جانبها ساعة، أن يمسك أصابعها الصغيرة الرشيقة، أن يدسّ قدمه تحت قدميها، أن يطبع قبله خاطفة خلف عنقها. كان يفكّر في ذلك، أحجية مضحكة له. أكانت هذه نقطة الانعطاف قد حانت؟ وكبر السن قد حان؟ أكان ذلك اندفاع للرجل ذي الأربعين عاماً نحو الفتاة ذات العشرين فحسب؟

كانوا قد وصلوا القمّة؟ ووراءها وثب عالم جديد أمام انظارهم، جبل مونت جينارو عالياً ووهميّاً، تراكم من اهرامات

ومخاريط حادة شاهقة لا تنتهي، وخلفه انحرفت الشمس، وكلّ نجد يتلألأ صقيلاً طافياً فوق ظلال بنفسجيّة داكنة. وما بينهم وبين الجبل كانت المساحات الشاسعة من الهواء الوامض والذراع الضيّقة الزرقاء للبحيرة التي ضاعت في أعماق لا قرار لها، ترقد وسط لهيب الغابة الأخضر.

كانت على القمّة قرية صغيرة: دار مالك المزرعة التي تميل إلى الصغر، وأربعة بيوت أو خمسة من حجر طليت بالأزرق والوردي، وكنيسة صغيرة، وينبوع، وأشجار كرز. توقّفت المجموعة فترة قصيرة عند الينبوع تحت الشمس، أما كلنكسر فاستمر في سيره عبر مدخل يقوده إلى فناء المزرعة الظليل، حيث ثلاث بنايات عالية يميل لونها إلى الزرقة ببضع نوافذ صغيرة فحسب، وبينها عشب وحصباء وماعز، ونبات القرّاص الشائك. هربت طفلة منه راكضة، فلاطفها لتعود، وأخرج حلوى من جيبه. توقّفت الطفلة فأمسك بها واحتضنها، وأعطاها الحلوى. كانت خجولة رائعة، فتاة داكنة السمرة ذات عينين سوداوين كعيني حيوان صغير تعيشان انذاراً، وساقين نحيلتين حافيتين سمراوين تشعّان. سألها: «أين تسكنين؟» فركضت إلى أقرب باب من أبواب البيوت المفتوحة التي تشبه الجرف الصخري. ومن غرفة حجرية معتمة مثل كهف بدائي خرجت إمرأة، أمّ الطفلة، فتقبّلت هي كذلك الحلوى. أعلى الملابس الوسخة برزت الحنجرة السمراء، ووجه عريض ذو عضلات متينة، ووجه جميل لوّحته الشمس، وفم عريض ممتلئ، وعينان واسعتان، سحر خام عذب. إنّ هذه الأشكال الأسيوية الضخمة تنمّ بهدوء عن الجنس والأمومة. إنحنى انحناءة اغواء تجاهها، فصدّته مبتسمة وهي تسحب الطفلة من بينهما. استمرّ في سيره عازماً على العودة.

أراد أن يرسم هذه المرأة، أو أن يكون حبيبها، ولو ساعة واحدة فحسب. لقد كانت كلّ شيء: أمّاً، طفلة، عشيقة، حيواناً، سيدة.

عاد إلى المجموعة على مهل تملأ قلبه الأحلام. كانت على جدار البناء الذي يبدو خالياً ومقفلاً، قد ثبتت قنابل مدفع قديمة غير مصقولة، وسلّم غريب الشكل يؤدّي عبر شجيرات إلى بستان وتلّ يعلوه نصب. هناك انتصب تمثال نصفي، مزخرفاً ومنعزلاً، بزيّ ولنشتاين[٢٧]، وشعر جعد، ولحية متموّجة مستدقّة الطرف. لمعت أشباح وخيالات حول الجبل في ضوء الظهيرة الساطع. كانت تكمن أشياء غريبة، فالعالم يتنغم وفق مفتاح ناء آخر. شرب كلنكسر من الينبوع، وطارت فراشة مذنبة قريباً وارتشفت قطرات الرذاذ على حافة الينبوع الكلسيّة.

كان طريق الجبل يسير مع الحافة الجبليّة تحت أشجار الكستناء والجوز في الشمس والظلّ. وعند إحدى المنعطفات كانت إلى جانب الطريق كنيسة صغيرة، قديمة صفراء، وفي المحراب صور قديمة شاحبة الألوان، ورأس قديسة، عذب عذوبة الملائكة، طفولي الملامح، وقطعة من ردائها الأحمر والبني، وما تبقّى كان قد تفتّت. كان كلنكسر يحبّ الصور الجصّية، ويحبّ الطريقة التي تعود بها هذه الأعمال الجميلة إلى التراب والأرض.

كان ثمة المزيد من الأشجار والكروم، وطريق حار يبهر العين. انعطافة أخرى، وهناك كان مبتغاهم. فجأة ودون توقّع، مدخل

(٢٧) ولنشتاين، ألبرت أويزبوس فون (١٥٨٣ ـ ١٦٣٤) جنرال نمساوي، قائد عسكري كبير. (المترجم)

معتم ذو طاق، كنيسة كبيرة عالية من الحجر الأحمر تشقّ طريقها واثقة نحو السماء، وساحة يغمرها ضوء الشمس، تراب وسلام، وعشب أحرقته الحرارة حتى صار أحمر، فيتكسّر تحت الأقدام، وضوء الظهيرة تعكسه الجدران اللامعة، وعمود اعلاه شكل لا يُرى في وهج الشمس، وحاجز حجري محيط بالساحة الفسيحة يتوازن فوق زرقة مطلقة. ووراء ذلك قرية كارينو، كهوف حجرية مكفهرّة تحت آجر أسمر مغبر، قديمة، ضيّقة، معتمة عتمة شديدة، عربيّة [٢٨]، ممرّات ضيّقة ضيقاً شديداً كما في الأحلام وغارقة في العتمة، مربّعات صغيرة تزعق فجأة زعيقاً عالياً في ضوء الشمس الأبيض، افريقيا ونكازاكي، فوق الغابة، وتحت الهاوية الزرقاء، عالية ما زالت الغيوم البيض المكتنزة المتشرّبة.

قال كلنكسر: «إنه لأمر مضحك، فما أطول الوقت الذي نحتاجه لنعرف طريقنا في العالم معرفة بسيطة فحسب. ذات مرّة عندما كنت ذاهباً إلى إفريقيا، منذ سنوات، مررت بهذا المكان في قطار سريع، على بعد ثلاثة أميال أو خمسة أو ستة، و لم أعرف عنه شيئاً. ومن افريقيا ذهبت إلى آسيا وحينها كان ذهابي ضرورة قصوى، لكن كلّ ما وجدته هناك أجده اليوم هنا: غابة بدائية، حر، أناس غرباء ملاح تعوزهم الجرأة، ضوء الشمس، معابد. يتطلّب الأمر وقتاً طويلاً لزيارة ثلاث قارات في يوم واحد. ها هي، مرحباً أيتها الهند! مرحباً يا افريقيا! مرحباً أيتها اليابان!».

---

(٢٨) استخدم كلمة Saracen وهو اسم استخدمه الاغريق واليونان المتأخرين للعربي أو المسلم أيام الحملات الصليبية، وتعني ينتسب إلى اسماعيل. (المترجم)

كان الأصدقاء يعرفون سيّدة فتيّة تعيش هنا في الأعالي، وكان كلنكسر متلهّفاً كثيراً للقاء المرأة المجهولة. كان يدعوها ملكة الجبال، وكان ذلك عنوان قصة شرقيّة غامضة في كتب صباه.

وكما هو متوقّع، اخترقت القافلة الممرّ الضيق الذي تظلّله ظلال زرق. ما من أحد، ما من صوت، ما من دجاجة، ما من كلب. ولكن من فتحة نافذة شبه معتمة رأى كلنكسر شخصاً صامتاً يقف، فتاة رائعة ذات عينين سوداوين، يلفّ شعرها الأسود منديل أحمر، فصعقه تحديقها الذي كان في انتظار أن يقتنص رؤية الغريب. نظر أحدهما في عيني الآخر نظرة جدّية تامّة مدّة نفس طويل، عالمان غريبان قريبان أحدهما من الآخر برهة من الزمن. ثم ابتسم كلاهما ابتسامة قصيرة، تحيّة الجنسين الأبديّة من صميم القلب، الخصومة القديمة العذبة المهللة، وبخطوة حول ركن البيت كان الغريب قد تلاشى ودخل صندوق أماني الفتاة، صورةً وسط صور كثيرة، حلماً وسط احلام كثيرة. وخزت الشوكة الصغيرة القلب الذي لا يشبع فتردّد لحظة وفكّر في العودة. ناداه آوغوستو، وبدأت ايرسيليا في الغناء، تلاشى جدار وهمي ولبثت ساكنة. ساحة صغيرة ساطعة مع قصرين أصفرين تبهر الأبصار في الظهيرة المسحورة، شرفات حجريّة ضيّقة، ومصاريع مغلقة، منصّة رائعة للفصل الأول من أوبرا.

صاح الدكتور: «الوصول إلى دمشق، أين تسكن فاطمة، الدرة بين النساء؟».

أتى الرد، ممّا يبعث الدهشة، من القصر الصغير، ومن الظلمة الباردة خلف باب الشرفة شبه المغلق تناهت نغمة غريبة، ثم اخرى، وأُعيدت نفسها عشر مرات، ثم نغمة الجواب عشر مرات

ـ كان عزفاً على البيانو. عزف شجي على البيانو وسط دمشق.

لا بدّ أن تكون هذه، هنا حيث كانت تعيش. ولكن يبدو أن البيت لا مدخل له، إذ كان هناك الجدار الأصفر وشرفتان فحسب، وفوقهما شيء من الرسم على جصّ الجزء المثلّث الأعلى: زهور زرق وحمر وببغاء. كان يجب أن يكون هنا رسم لباب، إن طرقته ثلاث مرات وقلت افتح يا سمسم، ينفتح الباب المرسوم مشرَّعاً ويرحّب بالسائل بعطور فواحة، وتكون ملكة الجبال جالسة على منصّة عالية خلف حجب، يجثو حيوان الأمومي على درجات السلّم عند قدميها، والببغاء المرسومة تطير صارخة إلى كتف سيّدتها.

وجدوا باباً صغيراً من جهة طريق جانبي. ورنّ جرس صارخ، وهو آليّة شيطانيّة. رنيناً غاضباً. كان ثمة سلّم صغير، ضيّق للغاية، يؤدّي إلى الأعلى. كان من المستحيل تصوّر كيف أدخل البيانو إلى البيت، من خلال النافذة؟ من السقف؟

أتى كلب أسود كبير مندفعاً، يتبعه جرو أشقر صغير، فكان انفجاراً من ضجيج، السلّم كان يرتجّ، وتناهى إلى السمع البيانو يؤدّي اللحن نفسه إحدى عشرة مرة. انسكب ضوء رقيق بعذوبة من إحدى الغرف متلفعاً ببياض وردي، واصطفقت الأبواب، أين كانت الببغاء؟

فجأة كانت ملكة الجبال تقف هناك، زهرة رشيقة نحيلة، جسم منتصب لدن، تتشح بالأحمر تماماً، لهيب متّقد، صورة للشباب. تناثرت أمام عيني كلنكسر مائة صورة حبيبة إلى نفسه وأخذت مكانهن متألّقةً الصورة الجديدة، وعرف حالاً أنّه سيرسمها، ليس

واقعياً، بل الشعاع الذي فيها، الذي صعقه، القصيدة، النغمة الرائعة اللاذعة: الشباب، الحمرة، الشقرة، القوّة الأمازونية[٢٩]. سينظر إليها ساعة، ربما بضع ساعات. سيراها تسير، تجلس، تضحك، ربّما ترقص، وربّما يسمعها تغنّي. لقد تُوِّج اليوم، فقد أعطي لليوم معناه. وأيّ شيء آخر كان محتمل الحدوث فقد كان هبة خالصة، بذخاً. كان الأمر على هذا المنوال دائماً: ما من تجربة تأتي منفردة أبداً. دائماً كانت طيورها تطير قبلها، ودائماً كانت هناك بشائر ونُذُر: الحيوان الأمومي الآسيوي بدا عند المدخل، والجمال القروي ذو الشعر الأسود عند النافذة، والآن هذه.

فاض به هذا الشعور هنيهةً: «لو كنت أصغر بعشر سنوات، عشر سنوات قصار، لاستطاعت هذه الفتاة أن تحوزني، تمسك بي، تجعلني كالخاتم في أصبعها. والآن، أنك شابة للغاية أيتها الملكة الحمراء الصغيرة، غضّة للغاية إزاء الساحر العجوز كلنكسر! سيعجب بك، سيحفظك عن ظهر قلب، لكنّه لن يحجّ إليك، ولن يتسلّق سلّماً نحوك، ولن يرتكب جريمة لأجلك، ولن يغنّي السيرينادا[٣٠] عند شرفتك الجميلة. كلا، لن يفعل، للأسف، أياً من هذه الأمور، ليس الرسّام العجوز كلنكسر، الكبش العجوز، لن يعشقك، ولن يرمقك كما رمق الأسيوية، والفتاة ذات الشعر الأسود عند النافذة، التي قد لا تكون أصغر منك بيوم واحد. إنّه ليس كبير السن قياساً بها. كبير إزاءك فحسب، يا ملكة الجبال،

---

(٢٩) نسبة إلى الأمازونيات في الأساطير اليونانية، وهن شعب من انساء المحاربات كن يعشن على ساحل البحر الأسود.
(٣٠) السيرينادا لحن حب يغني في الهواء الطلق. (المترجم)

يا زهرة حمراء على التلّ، إزاءك أيّتها القرنفلة البرية هو عجوز للغاية، ولك، فإن الحب الذي على كلنكسر أن يهبه ما بين يوم مثقل بالعمل وليل مترع بالنبيذ الأحمر، ليس كافياً. إذن، أفضل شيء، أن عيني ستعبّك عبّاً أيّها الصاروخ الرشيق، وستعرفك عندما يكون قد مضى وقت طويل منذ تلاشيك في داخلي.

عبر غرف ذات أرضيّة حجريّة، فصلتها عن بعضها أقواس بلا أَبواب، دخلوا بهواً حيث كانت أشكال جصّية باروكية(٣١) تتراقص فوق أبواب عالية، يستدير حولها حزام مزخرف داكن من رسوم الدلافين، والجياد البيض، ورسوم وردية لكيوبيد(٣٢) تطفو في بحر أسطوري يعجّ بالخلائق. كان ثمة بضعة كراس، وعلى الأرض أجزاء من البيانو الضخم المفكّك، ولا شيء آخَر في الغرفة الكبيرة. لكن ثمّة ما بين ممّرين كانا يؤدّيان إلى شرفتين صغيرتين تطّلان على الساحة الأوبرالية التي صعقتها الشمس، ومقابلهما مباشرة برزت شرفات القصر المجاور، وكانت تكلّلهما الرسوم كذلك. وكان ثمّة طير كاردينال(٣٣) أحمر بدين يحلّق كأنه سمكة ذهبية تحت الشمس.

فمكثوا، وفي البهو الكبير أُخرجت المؤونة وأعدّت المائدة وجلب النبيذ، نبيذ أبيض نادر من الشمال، مفتاح حَشْدٍ من

(٣١) باروكي: نسبة إلى عمارة وفن سادا في القرن ١٦، ١٧، ١٨ ويتميزان بالزخرفة المفرطة المعقدة الغرية.

(٣٢) كيوبيد: إله الحب لدى الرومان، يصور بشكل طفل جميل مجنح بيده قوس وسهام، رمز للحب. (المترجم)

(٣٣) طير الكاردينال: طائر أحمر مغرد بِعُرْف على رأسه، موطنه أميركا الشمالية. لا يهاجر. (المترجم)

الذكريات. رحل عازف البيانو، فاستكان البيانو ذو الغطاء المرفوع. حدّق كلنكسر مليّاً في الأحشاء المكشوفة ذات الأوتار اللامعة، ثم أغلق الغطاء بهدوء. أوجعته عيناه، لكن النهار الصيفي كان يغنّي في قلبه، والأم العربيّة تغنّي، وحلم كارينو يغنّي أزرق محلقاً. أكل وشرب الأنخاب مع الآخرين وتكلّم مرحاً بصوت عال، ووراء ذلك كلّه كان جهاز ورشته يعمل. كانت عيناه تحتضنان القرنفلة البرية، الخشخاش البري، كاحتضان الماء للسمكة. تربّع في ذهنه كاتب مجتهد، ودوّن بعناية أشكالاً، إيقاعات، حركات كما لو كان يحفر أشكالاً في أعمدة نحاسيّة.

ملأ الحديث والضحك الغرفة الخالية. انطلقت ضحكة الدكتور الحصيفة الحنون، وضحكة إيرسيليا الخافتة الودود، وضحكة آغوستو القويّة الخفيّة، وضحكة مارثا الشبيهة بضحكة العصفور. تحدّث الشاعر بعقلانية، وكلنكسر مازحاً. كانت الملكة الحمراء تسير وسط ضيوفها والدلافين والجياد، ترقب عن كثب، خجولة قليلاً، تسرع الخطى هنا وهناك، تقف إلى جانب البيان، تقتعد وسادة، تقطع الخبز، تسكب النبيذ بيد صبيانيّة غير ماهرة. عادت البهجة يضج بها البهو البارد، والعيون تتلألأ سوداً وزرقاً، وخارج أبواب الشرفة العالية كانت الظهيرة الباهرة الضوء تحدّق إلى الأسفل في نوبة حراسة.

دار النبيذ الرائع الرقراق في الأقداح، فكان مقابلاً لذيذاً للوجبة الباردة البسيطة. وتدفّق الوهج الأحمر النقي من ثوب الملكة في أرجاء الغرفة العالية، وتبعته بانتباه وصفاء كلّ عيون الرجال. فاختفت ثم عادت وقد عقدت وشاحاً أخضر، ثم اختفت، وعادت وقد ارتدت منديلاً أزرق.

بعد الطعام انطلقوا مرحين إلى الغابة وهم تعبون، واضطجعوا على العشب والطحالب، فالتمعت المظلّات وتوهّجت الوجوه تحت قبّعات القش، وكانت الشمس لامعة حارقة. اضطجعت ملكة الجبال الحمراء على العشب الأخضر، وقد برزت حنجرتها الجميلة بيضاء من اللهيب، وحذاؤها العالي كثيف الألوان ينبض بالحياة في قدمها النحيلة. وقربها كان كلنكسر يقراها، ويدرسها، ويغمر نفسه بها، تماماً كما كان يفعل عندما كان صبيّاً يقرأ القصة السحريّة لملكة الجبال ويغمر بها نفسه. خلدوا إلى الراحة، غفوا، تحادثوا، ضربوا النمل، ظنوا أنهم يسمعون صوت أفاع. علقت جوزات الكستناء الشائكة بشعر النساء. فكّروا في الأصدقاء الغائبين الذين فاتتهم هذه الساعة ــ ولم يكن عددهم كبيراً. تمنّوا لو أن لويس القاسي كان معهم، صديق كلنكسر، ورسّام دوّامة الخيل والسيرك، فروحه المرحة كانت تحوم حول المجموعة، قريبة منها.

مرّ العصر كأنه عام في الجنة. وعندما افترقوا عن الملكة ضحكوا ضحكاً كثيراً. أخذ كلنكسر كلّ شيء معه، في قلبه: الملكة، الغابة، القصر وغرفة الدلافين، الكلبين، الببغاء.

طغى عليه، شيئاً فشيئاً وهو ينحدر عن الجبل مع أصدقائه، المزاج البهيج الذي كان يشعر به في أيام نادرة فحسب، عندما كان يترك عمله باختياره، فرقص يداً بيد مع إيرسيليا، ومع هيرمان، ومع مارثا، كان يرقص منحدراً على الطريق الذي أضاءته الشمس، وبدأ ينشد الأغاني، متمتّعاً كالاطفال بالنكات والألعاب اللفظية، مستسلماً للضحك. وركض متقدّماً الآخرين ومكث في مكمن لإخافتهم.

على الرغم من مسيرهم السريع إلا أن الشمس غارت على نحو أسرع. وعند وصولهم بالازيتو كانت قد غربت خلف الجبل، وفي الوادي أسفله، فكان أن حلّ المساء. كانوا قد أضاعوا الطريق وانحدروا أكثر مما يجب، وهم جيّاع متعبون، وكان عليهم أن يتخلّوا عن خطتهم للتجوال مساء عبر الحقول إلى بارينغو، وتناول عشاء من السمك في مطعم القرية على ضفة البحيرة.

قال كلنكسر وهو يجلس على سياج محاذ للطريق: «يا أعزائي، إن خططنا كانت جميعها ممتازة، وإني لأكون شاكراً بالتأكيد لتناول عشاء ممتاز بين صيّادي السمك أو في مونت د أورو. لكننا لا نستطيع أن نبلغ هذا المبلغ، أو في الأقل أنا لا أستطِيع ذلك. فأنا تعب وجائع، ولن أتقدّم خطوة أخرى بعد أقرب حانة جبليّة[٣٤] هي من المؤكد ليست بعيدة. هناك يمكننا الحصول على الخبز والنبيذ وذلك كاف. من يأتي؟

ذهبوا جميعاً. ووجدوا الحانة، فعلى أرض مسطّحة ضيّقة قُطعت على التل المشجر كانت مساطب ومناضد حجرية في عتمة الشجر. جلب صاحب الحانة نبيذاً بارداً من قبو النبيذ في الغار. وكان على الموائد خبز. جلسوا في هذا الوقت يأكلون صامتين، فرحين أنهم جلسوا أخيراً. ذوى النهار خلف جذوع الأشجار الطويلة وصار الجبل الأزرق أسود، والطريق الأحمر أبيض. أسفل الجبل، على الطريق المتلفع بالليل كان بإمكانهم سماع صوت سيّارة وكلب ينبح. ظهرت النجوم في السماء هنا

(٣٤) كهف طبيعي أو صناعي يستخدم حانة أو ملاذاً في الجبال والبساتين. (المترجم)

وهناك وفي المنظر أسفل الجبل كانت الأضواء تتغامز، فلم يكن بالإمكان معرفة النجوم من الأضواء.

جلس كلنكسر فرحاً يرتاح، محدّقاً في الليل، يصدّ جوعه على مهل بالخبز الأسمر، ويعب بهدوء كؤوس النبيذ المزرقّة. وإذ أمسى شبعاً بدأ بالحديث والغناء ثانية، وأخذ يتأرجح مع ايقاع الأغاني، لاعب النساء، وشمّ عبير شعورهن. بدا له النبيذ حسناً، وباعتباره غاوياً متمرّساً طرح بيسر اقتراحاته باكمال مسيرهم. شرب نبيذاً، سكب نبيذاً، وأرسل في طلب المزيد من النبيذ. ظهرت ببطء من الكؤوس الخزفية المزرقّة، رمز الزوال، فقاعات رائعة، تحويل سحري للعالم وتلوين للنجوم والأضواء.

جلسوا في أرجوحة تتطوّح عالياً فوق هاوية العالم والليل، طيوراً في قفص ذهبي، دون مأوى، دون وزن، في الجهة المقابلة للنجوم. غنّوا، هؤلاء الطيور، غنّوا أغاني عربيّة، ومن قلوبهم النشوى قذفوا بخيالاتهم داخل الليل، إلى داخل السماء، إلى داخل الغابة، إلى داخل الكون المسحور. وأتت الردود من النجوم والقمر، من الأشجار والجبال هناك جلس غوته وصنوه حافظ [٣٥]، نهضت مصر اللاهبة وبلاد الأغريق البائدة. ابتسم موزارت [٣٦]، وعزف هوغو وولف[٣٧] على البيانو في الليل الذي يهذي.

---

(٣٥) حافظ الشيرازي، شمس الدين محمد (١٣٢٦ ـ ١٣٨٩) شاعر فارسي صوفي. (المترجم)

(٣٦) موزارت، فلفغانغ أماديوس (١٧٥٦ ـ ١٧٩١) مؤلف موسيقي نمساوي عبقري (المترجم)

(٣٧) هوغو وولف (Hugo Wolf) (١٨٦٠ ـ ١٩٠٣) مؤلف موسيقي نمساوي. (المترجم).

كانت أسفل الجبل جلبة وضوضاء، سطع ضوء مباشر عبر قلب الأرض، واندفع كالبرق قطار ذو مائة نافذة مضاءة تبهر الأبصار داخل الجبل وداخل الليل. وفوقهم، في السماء، دقّت أجراس كنيسة خفيّة. ارتفع نصف البدر فوق المائدة متسلّلاً، نظر إلى انعكاسه في النبيذ الداكن، رسم فم امرأة وعينيها في الظلمة، تسلّق عالياً، وغنّى للنجوم. جلست روح لويس القاسي محنية منعزلة على مسطبة تكتب الرسائل.

وجّه كلنكسر، ملك الليل، رقصة العالم، وعلى رأسه تاج عال، متّكئاً على عرشه الحجري، قرّر الايقاع، استدعى القمر، وأراد أن يختفي القطار فاختفى فوراً مثل مجموعة من الكواكب تهوي عند حافة السماء. اين كانت ملكة الجبال؟ ألم يكن ذلك صوت بيانو في الغابة؟ ألم يكن ذلك الجرو الصغير المريب ينبح بعيداً؟ ألم تكن ترتدي منديلاً أزرق للحظة خلت؟ إذهب هناك، أيها الجبل الأسود! التزم بالايقاع! أيتها النجوم، ما أشدّ زرقتك وحمرتك، كما في الأغنية الشعبية: «عيونك الحمر وفمك الأزرق!».

كان الرسم رائعاً، كان الرسم لعبة عزيزة رائعة لأطفال مهذّبين. بيد أنّه كان شيئاً آخر، أكثر رفعة وأهمّية، لتوجيه حركة النجوم، لقذف نبض دمك عينه، ودويرات ألوان من شبكيّة عينك نفسها، داخل العالم، لجعل اهتزازات روحك تعزف عليها رياح الليل. سحقاً لك أيّتها الجبال السود! صيّري غيمة، وحلّقي إلى بلاد فارس، أمطري على أوغندا! تعالي هنا يا روح شكسبير، غنّي لنا أغنية الأحمق السكران عن المطر الذي يهطل كل يوم!

قبّل كلنكسر يداً صغيرة لإحدى النساء، ومال على نهد إحدى النساء الذي يعلو ويهبط بعذوبة. عابثت إحدى الأقدام قدمه تحت

المائدة. لم يكن يعرف كف مَنْ او قدم مَنْ، كان يشعر بالرقة من حوله، وشاكراً يشعر بالسحر القديم يتجدّد. كان لا يزال فتياً، كان الأمر لا يزال بعيداً عن نهايته، وكان لا يزال قادراً على أن يشعّ ويفتن، فما زلن يحببنه، الاناث الصغيرات الطيّبات المتلهّفات، كنّ لا يزلن يعولن عليه.

حلّق عالياً، وبصوت مترنم خفيض بدأ يقص حكايةً، ملحمة رهيبة، قصّة علاقة حبّ، أو أنّها بالأحرى كانت، في حقيقتها، رحلة إلى البحار الجنوبيّة حيث اكتشف برفقة غوغا[٣٨] وكروزو[٣٩] جزيرة (باروت)[٤٠] وأسّس (الدولة الحرّة للجزر المباركة). ما كان أشد تألّق آلاف الببغاوات في الشفق، وما كان أشدّ التماع ذيولها الزرق وانعكاسها في الخليج الأخضر! وكانت صرخاتها، وزعيق من مائة صوت للقردة الكبيرة، تحييه كالرعد ـ هو، كلنكسر، عندما أعلن دولته الحرة. كان قد طلب من ببغاء الكوكاتو الأبيض أن يؤلف وزارة، وشرب مع طير وحيد القرن[٤١] المتجهّم نبيذ التمر في أقداح جوز الهند الثقيلة. يا قمر الماضي، قمر الليالي الهانئة، القمر فوق المسكن ذي الركائز بين القصب! حملت الأميرة السماء الخجول اسم كوول كالووا، خطت نحيلة طويلة الأطراف خلال غابة الموز، وهي تومض كالعسل تحت

(٣٨) الرسام الفرنسي بول غوغان (١٨٤٨ ـ ١٩٠٣)، انطباعي، رسم سكان جزر بحر الجنوب.

(٣٩) إشارة إلى بطل الرواية المشهورة (روبنسن كروزو) التي كتبها دوفوا. وهي قصة بحار تتحطم سفينته ويعيش سنوات في جزيرة صغيرة. (المترجم)

(٤٠) باروت (Parrot) تعني ببغاء. (المترجم)

(٤١) طير وحيد القرن: طير أسود الريش، أبيض ريش الساقين والذيل، له منقار كبير يعلوه عرف أحمر، يعيش في ماليزيا واندونيسيا. (المترجم)

السقف النضر للأوراق الضخمة، لها عينا ظبي، وظهر قطة، وتوتر ماكر في الكاحل خفيف الحركة والساق القوية. كوول كالووا، يا طفلتي، با عاطفة الجنوب الشرقي المقدّس الدافئة العتيقة وبراءته الطفولية، لقد اضطجعت ألف ليلة على قلب كلنكسر، وكانت كل ليلة جديدة، وكل ليلة أعذب، وكل ليلة أرقّ من الليالي الأُخر. يا مهرجان (روح الأرض) عندما ترقص عذارى جزر (باروت) امام الإله!

فوق الجزر، فوق كروزو وكلنكسر، فوق الحكاية والسامعين، تقوّس الليل ذو النجوم البيض، وبرز الجبل مثل بطن وأثداء تتنفس تنفساً رقيقاً تحت الأشجار والبيوت وأقدام الرجال، وكان القمر المسرع يرقص رقصاً محموماً فوق القبة الزرقاء، وقد لحقته النجوم في حركات راقصة صامتة وحشية. انتظمت سلاسل من النجوم، السلك اللامع المعلّق الذاهب إلى الجنة. عتمت الغابة البدائية عتمة أمومية، وبعث طين بدائي رائحة تفسّخ ونشوء، دبت أفاعٍ وتماسيح، وتدفق نهر الأشكال دون حدود أو ضفاف.

قال كلنكسر: «سأرسم ثانية على أيّة حال، سأبدأ ثانية غداً، ولكن ليس المزيد من هذه البيوت والناس والأشجار. سأرسم تماسيح ونجم البحر، تنانين[٤٢] وحيات أرجوانيّة، وكل شيء يتغير، الذي تأسره الرغبة في أن يصبح إنساناً، وتأسره الرغبة في أن يصبح نجوماً، المترع بالولادة، المترع بالتفسخ، المترع بالله والموت».

وسط كلماته الهامسة، ووسط ساعة الثمالة الوحشيّة، ترنّم

(٤٢) جمع تنين. (المترجم)

صوت إيرسيليا خفيضاً صافياً. غنّت بهدوء هامسة أغنية (بيل ماتزو دي فيوري)[٤٣]، فتدفقت السكينة من أغنيتها، وكان كلنكسر يسمعها كما لو كانت آتية من جزيرة طافية بعيدة عبر بحار الزمن والعزلة. قلب قدحه الفارغ و لم يملأه ثانية، وأنصت. كانت طفلة تغنّي. كانت أمّ تغني. ماذا كان ـ شخص خاطئ شرير غاص في مستنقع العالم، وغد متهتك، أم كان طفلاً صغيراً غبياً؟

قال باحترام: «يا ايرسيليا أنتِ نجمة حظنا».

تلمّسوا طريقهم عائدين، متسلّقين الجبل، خلال الغابة المنحدرة المعتمة متشبثين بالأغصان والجذور، فوصلوا حافة الغابة، واعتلوا حقلاً كأنهم قراصنة على ظهر سفينة. كان الدرب الضيّق عبر حقل الذرة يعبق برائحة الليل والعودة، والقمر يومض منعكساً على أوراق الذرة اللامعة، وصفوف الكروم تنحدر بعيداً. في هذا الوقت غنى كلنكسر غناء خافتاً بصوته الأجشّ بعض الشيء، غنّى أغاني هامسة كثيرة، أغاني ألمانية ومن الملايو[٤٤]، بكلمات أو دونها. وبغنائه الخفيض صبّ كلّ ما كان متراكماً في نفسه، مثلما يشعّ جدار أسمر مساءً ضوء النهار المخزون فيه.

وهنا غادر أحد الأصدقاء مودِّعاً، وهناك غادر آخر، فاختفوا في الدروب الضيّقة في عتمة أشجار العنب. جميعهم غادروا، كلّهم تركوه وحده متوجّهاً إلى بيته، وحيداً تحت السماء. قبّلت إحدى النساء كلنكسر متمّنية له ليلة سعيدة، فارتشف فمها

(٤٣) ايطالية تعني (باقة الزهر الجميلة). (المترجم)
(٤٤) شبه جزيرة في جنوب شرق آسيا تضم سنغافورة وماليزيا. (المترجم)

المشتعل فمه. انصرفوا، وتلاشوا، جميعهم. عندما ارتقى كلنكسر درجات السلّم وحيداً إلى مسكنه، كان لا يزال يغنّي. كان يغنّي تسابيح لله ولنفسه، كان يمجّد لي بو، ونبيذ بامبامبيو الجيد. ومثل إله كان يتكيء على غمام من التأكد.

غنّى: «أنا في قرارة نفسي مثل كرة من ذهب، كقبّة كاتدرائية يركع الناس فيها، ويصلي الناس، تخرج أشعة ذهبية من الجدار، وينزف المخلّص في رسم قديم، وقلب مريم ينزف. نحن ننزف كذلك، نحن الآخرون، الأرواح الخاطئة، نحن النجوم والمذنبات، سبعة سيوف وأربعة عشر تخترق صدورنا المباركة. إني أحبّكن أيتها النساء الشقر والسمر، أحبكن جميعاً، حتى الساذجات الأفظاظ، جميعكن بائسات مثلي، كلّ الأطفال المساكين وأنصاف الآلهة الأوغاد يشبهون كلنكسر الثمل. أيّتها الحياة الحبيبة أحيّيكِ! وأحيّيك أيّها الموت الحبيب!».

من كلنكسر إلى إيدث

عزيزتي نجمة السماء الصافية،

يا له من أمر رائع وصادق أنّك كتبت لي، وما أشدّها إيلاماً دعوات حبّك لي، مثل أغنية أبدية، مثل عتاب أبدي. لأنك تكونين على الطريق الصحيح حين تعترفين، حين تعترفين لنفسك، بكل خلجة من خلجات القلب. ولكن لا تسمّي أيّ عاطفة أمراً تافهاً، وأيّ عاطفة أمراً حقيراً، فكلّها حسنة، حسنة جداً، حتى البغض، حتى الحسد، حتى الغيرة، حتى القسوة. فجميع ما نعيش عليه هو مشاعرنا المتواضعة الرائعة البهيّة، وكل شعور خاطئ نشعر به هو نجمة أطفأناها.

لا أدري إن كنت أحبّ جينا، إني لأشكّ في ذلك كثيراً، فلست أضحّي لأجلها. لا أدري إن كنت قادراً على الحبّ أبداً. باستطاعتي الاشتهاء والبحث عن نفسي في الآخرين، وبإمكاني الإنصات إلى صدى، وطلب امرأة، والسعي للمتعة، وكل ذلك قد يبدو حباً.

كلانا، أنا وأنت، نجول في المتاهة نفسها، في متاهة مشاعرنا التي أُستخفّ بها في هذا العالم الذي يُرثى له، وبسببها ننتقم من هذا العالم الشرير، كل بطريقته. ولكن دعينا، كلاً منا، نترك أحلام

الآخرين تبقى، لأننا نعلم مقدار عذوبة خمرة الأحلام وشدّة حمرتها.

إن وضوح المشاعر و(أهمّية) الأفعال وعواقبها أمر يملكه الناس الطيّبون الواثقون بانفسهم فحسب، أولئك الذين يؤمنون بالحياة ولا يخطون أي خطوة لا يكون بمقدورهم استحسانها غداً واليوم الذي يليه كذلك. لستُ محظوظاً بما يكفي حتى اكون احدهم، واني اشعر وأتصرّف مثل رجل لا يؤمن بالغد ويعتبر كلّ يوم يومه الأخير.

عزيزتي الغادة الهيفاء، لست محظوظاً في اجتهادي للتعبير عن أفكاري، فالأفكار المعبِّر عنها دائماً تكون جدّ ميتة. لندعها تحيا! إني لأشعر شعور عميقاً وشاكراً إنك تفهمينني، وأنّ شيئاً ما فيك قريب مني. لا اعرف تحت اي عنوان في كتاب الحياة يجب وضع ذلك. سواء كانت مشاعرنا حبّاً، او جنساً، او شكراً، او تعاطفاً، سواء كانت أموميّة أو طفوليّة. غالباً ما انظر إلى كل امرأة مثل خليع ماكر، وغالباً كصبي صغير. غالباً ما تكون المرأة الأكثر عفّة أشد ما تغريني، وغالباً ما تكون أكثرهن حسناً وغيداً. كل شيء مسموح لي بحبه جميل، مقدّس، مطلق الحسن. ولكن لمَ، وإلى متى، وإلى ايّ حدّ يمكنني ان أحبّ ـ ذلك ما لا أستطيعَ الفصل فيه.

إني لا احبّك وحدك، كما تعلمين جيّداً، ولست أحبّ جينا وحدها، فغداً وبعد غد سأحب نساء أخريات، وارسم صوراً أُخر، ولكني لن اندم على أيّ حبّ شعرتُ به يوماً، وأي تصرّف حكيم او احمق ارتكبته اكراماً لأولئك اللواتي احببت. ربّما أني

أحبّك لأنك تشبهينني، وأحبّ الآخرين لأنهم مختلفين جداً عني.

إنها ساعة متأخِّرة من الليل، والقمر يشرف على جبل مونت سالوت. يا لابتسامة الحياة، يا لابتسامة الموت!

إرمي هذه الرسالة السخيفة في النار، وأرمي في النار.

المخلص كلنكسر

موسيقى القدر المحتوم

كان قد حلّ اليوم الأخير من تموز، شهر كلنكسر المفضّل، وخبا مهرجان لي بو الكبير، ولم يُقم مرة أخرى. رفعت زهور الشمس في الحديقة ذهبها بوقاحة نحو السماء الزرقاء. جال كلنكسر مع صديقه المخلص توفو في أرجاء منطقة كان يحبّها، وهي الضواحي الملتهبة للمدينة، طرق ترابيّة تحت صفوف عالية من الأشجار، بيوت صغيرة حمر وبرتقالية قبالة الساحل الرمليّ، شحنات وأرصفة الميناء، جدران بنفسجية طويلة، أناس فقراء مختلفو الألوان. جلس مساء على التراب عند حافة المدينة، ورسم الخيم والعربات الملوّنة لمدينة الألعاب الجوّالة، فجلس القرفصاء بمحاذاة الطريق على مرج متيّبس وسخ، يتسلّى بالألوان الحادّة للخيم. تعلق نظرة بسرعة باللون الليلكي الشاحب لشرائط إحدى الخيم، وبالألوان الخضر والحمر البهيجة لمقطورات السكن الغير متقنة الصنع، وبأعمدة هيكل البناء البيض والزرق. غمس الفرشاة بعنف في الكادميوم [٤٥]، وبوحشيّة في أزرق الكوبالت [٤٦] الهادئ العذب، ورسم خطوطاً متلاشية من القرمزي الداكن

---

(٤٥) الكادميوم: لون أبيض فضي لامع نسبة إلى معدن الكادميوم. (المترجم)

(٤٦) أزرق الكوبلت: أزرق داكن يركب مع معدن الكوبلت. (المترجم)

خلال السماء الصفراء والخضراء. وبعد ساعة، بل أقلّ، عند ذاك يتوقّف، يحلّ الليل، وغداً يكون آب قد بدأ. آب شهر الحمى المتّقدة الذي يخلط كثيراً من الجُبْن والخوف من الموت في كأسه اللاهبة. شُحذ المنجل، وخبا النهار، فالموت كان يضحك متخفّياً بين الأوراق المتيّبسة. إقرع بشدة وانفخ بوقك أيها الكاديوم! تفاخر بصوت عالٍ أيها القرمزي الداكن الباذخ! اضحك ساطعاً أيها الأصفر الليمونِي! تعال هنا أيها الجبل الأزرق الداكن النائي. تعالي إلى قلبي أيّتها الأشجار بالأخضر المطفأ المغبر. شدّ ما أنت تعبة، وما أكثر ما تدعين غصونك التقية تطأطئ بإذعان. أشرب نخبك أيتها الأشياء الرائعة في العالم! إني أشبهك بالبقاء والخلود، أنا من هو أكثر زوالاً وأكثر إيماناً، وأكثر الجميع حزناً، الذي يعاني خشية الموت أكثر منكن جميعاً. لقد احترق تموز تماماً، وقريباً سيحترق آب تماماً، وفجأة تثلجنا الروح العظيمة من الأوراق الصفر في الصباح الندي. فجأة يكتسح الغابة تشرين الثاني. فجأة تضحك الروح العظيمة، وفجأة يستقر البرد حول قلوبنا، فجأة يسقط اللحم الوردي العزيز عن عظامنا، ويعوي ابن آوى في الصحراء، ويغنّي النسر بصوت أجشّ أغنيته البغضية. وتنشر صحيفة مقيتة في المدينة صورتي وتحتها هذه الكلمات: «رسّام بارز، تعبيري، مُلوّن كبير مات في السادس عشر من هذا الشهر».

شقّ ثلماً من أزرق باريس، وقد استبد به الحقد، تحت عربة الغجر الخضراء، وكسر الحافّة الصفراء الكروميّة لحجارة الطريق وقد امتلأ مرارة. رشّ الأحمر المشرق في بقعة خالية مُبيداً الأبيض المتحدّي وقد ركبه يأس عميق، وقاتل نازفاً لأجل الاستمرار. واستصرخ الرب الذي لا يعطف بالأخضر المشرق وأصفر نابولي.

رمى متأوهاً المزيد من الأزرق في الأخضر الكئيب المغبرّ، وأضاء متضرّعاً أضواء أعمق في سماء الأمسية. كانت لوحة الألوان الصغيرة، الملأى بالألوان الخالصة غير الممزوجة واللامعة لمعاناً شديداً، سلواه، وبرجه، وترسانته، وكتاب صلواته، ومدفعه. منها أطلق النار على الموت الشرير. فالأرجواني كان رفضاً للموت، والأحمر المشرق استهزاء بالتفسخّ. كانت ترسانته جيّدة، فجنده الشجعان اصطفوا لامعين، ودوائر الاطلاق السريعة كانت تومض من مدفعه. ولكن ذلك لم يكن مجدياً. فكل إطلاق النار كان هباء، إلا أنّه كان أمراً حسناً، كان سعادة وعزاء، كان يعني البقاء حياً، والبقاء منتصراً.

كان توفو قد ذهب لزيارة صديق لديه معقل سحري هناك بين المصنع وبين رصيف الميناء. والآن عاد وقد جلب معه المنجّم الارمني.

وإذ أنهى كلنكسر رسمه، تنفّس الصعداء شاعراً بالراحة حينما رأى الوجهين إلى جانبه، شعر توفو الأشقر الجميل، ولحية الساحر السوداء والأسنان البيض لوجهه المبتسم. ومعهما أتى الظل كذلك، الظل الطويل المعتم ذو العينين الغائرتين في محاجر عميقة. مرحباً بك، أنت كذلك، أيها الظلّ، أيها الشخص اللطيف!

سأل كلنكسر صديقه: «أتعرف أيّ يوم هو اليوم؟»

ـ «اليوم الأخير من تموز على ما أعلم».

قال الأرمني: «لقد قرأت الطالع اليوم، ورأيت أن هذا المساء سيجلب شيئاً. فزُحَل يقف على نحو غريب، والمريخ محايد، المشتري مهيمن. يا (لي بو) ألست من برج الأسد؟».

ـ «لقد ولدت في الثاني من تموز».

ـ «هذا ما حسبته! فنجومك تقف على نحو مشوّش، أيّها الصديق، أنت نفسك فحسب بمقدورك تفسيرها. إن الخصوبة تحيطك كغيمة توشك أن تنهمر، ونجومك تقف على نحو غريب، يا كلنكسر، وأنا واثق بأنه ليس لك من دون الشعور بذلك سبيل».

رزم كلنكسر عدّته. كان العالم الذي رسمه قد خبا، وانطفأت السماء الخضراء والصفراء. وغرق العلم الأزرق اللامع، وذبح الأصفر الرائع وذبل. كان جائعاً عطشاً يشعر بحنجرته يملؤها الغبار.

قال بمودّة: «أيّها الأصدقاء، دعونا نقضي هذه الأمسية معاً. فلن نكون معاً مرّة أخرى، نحن الأربعة جميعاً، إني لا أقرأ ذلك في النجوم لكنّي أجده مكتوباً في قلبي. لقد انتهى قمري التموزي، فساعاته الأخيرة تتوهّج توهّجاً معتماً، وفي الأعماق تنادي (الأم العظيمة). لم يكن العالم جميلاً مثل هذا الجمال يوماً، ولم أرسم لوحة بهذا الجمال قط. إنّ بروق التأججّ تومض، فقد بدأت موسيقى القدر المحتوم. دعونا نغنّي معها، الموسيقى العذبة المنفرة. دعونا نبقى معاً نشرب النبيذ ونأكل الخبز».

كانت إلى جانب دوّامة الخيل، التي قد شرعوا في تقويض خيمتها استعداداً للمساء (لأنها وضعت ظلاً من الشمس)، بضع مناضد تحت الأشجار، ونادلة عرجاء تروح جيئة وذهاباً، إذ كان في الظل حانة صغيرة. وهنا جلسوا إلى المنضدة الخالية، فجيء بالخبز وسكب النبيذ في الأوعية الخزفية. توهجت الأضواء تحت الأشجار. وعن بعد بدأ أرغن دوّامة الخيل اليدوي يقعقع مطلقاً موسيقاه الزاعقة في جنبات المساء.

صاح لي بو: «أريد أن أعبّ ثلاثمائة كأس الليلة!» وتبادل الأنخاب مع الظلّ. «تحياتي، أيّها الظلّ، أصمد أيّها الجندي المزيّف! تحياتي، أيّها الأصدقاء! تحياتي، أيتها الأضواء الكهربائيّة والمصابيخ القوسية [٤٧]، والزركشة المتلألئة لدوّامة الخيل! آه، لو كان لويس هنا حسب، العصفور الطريد! ربّما كان قد طار لتوّه قبلنا إلى السماء. أو لربّما سيعود غداً، الثعلب العجوز، ولا يجدنا فيضحك ويثبت مصابيح قوسيّة وساريات أعلام على قبرنا».

ذهب المنجّم بهدوء وعاد بنبيذ جديد، وأسنانه البيض تبتسم فرحة في فمه الأحمر.

قال وهو يرمق كلنكسر: «السوداوية شيء لا يجدر بنا حمله معنا. وهو أمر بغاية اليسر ـ إنه عمل ساعة، ساعة مجهدة واحدة بأسنان مصكوكة، وحينها يكون المرء قد تخلّص من السوداوية إلى الأبد».

نظر كلنكسر إلى فمه عن كثب، وإلى أسنانه اللامعة القويمة التي مضغت في يوم من الأيام، وفي ساعة اتقاد، السوداوية ومزّقتها حتى الموت. أيمكنه كذلك أن يفعل ما نجح المنجّم في فعله؟ يا أيتها النظرة القصيرة العذبة إلى داخل الرياض البعيدة: حياة دون فزع، حياة دون سوداوية! لكّنه كان يعلم أنّه لا يستطيع لهذه الرياض وصولاً. كان يعلم أن مصيره مختلف. وأن زُحل انخفض عليه انخفاضاً مختلفاً، وأن الله أراده أن يعزف أنغاماً مختلفة على أوتاره.

---

(٤٧) المصباح القوسي Arc Lamp: مصباح يعمل بقوس تفريغ كهربائي أو قدح تفريغ كهربائي. (المترجم)

قال كلنكسر بتؤدة: «كلّ له نجومه، كلّ له معتقده، إنِّي أؤمن بأمر واحد فحسب: القدر. نحن نسير في عربة على حافة هاوية، والجياد مذعورة سلفاً. إننا غارقون في القدر، جميعنا لا بدّ أن نموت، ولا بدّ أن نولد ثانية. لقد حانت لنا نقطة الانعطاف الكبرى. إنّه الأمر نفسه في كلّ مكان: الحرب الكبرى، التغيّر الكبير في الفن، الانهيار الكبير لحكومات الغرب. في ما يتعلّق بنا، في أوروبا القديمة كلّ شيء لدينا مما هو حسن ويخصّنا قد مات سلفاً. عقلنا الراجح أصبح جنوناً. نقودنا ورق، مكائننا لا تستطيع عمل شيء سوى اطلاق النار والانفجار، فنّنا انتحار. نحن نهلك، أيّها الأصدقاء، ذلكم هو مصيرنا. لقد بدأت موسيقى القدر على نغمة تسنغ تسي»(٤٨).

صبّ الأرمني خمراً.

قال: «كما تشاء، بإمكان المرء أن يقول نعم وبإمكانه أن يقول لا، هذه لعبة أطفال فحسب. إنّ القدر شيء غير موجود.؟ فلكي يوجد القدر أو الانبعاث لا بدّ من وجود قمة وقاع. ولكن ليس ثمة قمة وقاع، فهذه لا توجد إلا في عقل الإنسان الذي هو موطن الأوهام. كلّ التناقضات أوهام: فالأبيض والأسود وهم، الموت والحياة وهم، الخير والشر وهم. إنّه عمل ساعة، ساعة متّقدة واحدة وبأسنان مصكوكة، ويكون المرء قد تغلب على مملكة الأوهام».

(٤٨) Tsiny Tse: كلمات صينية، والاولى هي المقطع الأول من كلمات صينية مثل تسنغهاي أي شنغهاي. (المترجم)

أنصت كلنكسر إلى صوته الحسن

وأجاب سريعاً: «إني اتحدّث عنّا، اتحدث عن اوروبا، أوروبانا القديمة التي اعتقدت مدّة الفي عام أنّها عقل العالم. إنها ماضية نحو الهلاك. أتعتقد، أيّها المجوسيّ، إني لا اعرفك؟ إنّك رسول من الشرق، رسول لي أيضاً ربّما تكون جاسوساً، ربّما قائداً عسكريّاً متنكراً. إنّك هنا لأن النهاية في طور الابتداء، لأن رائحة القدر ملء منخريك. إلا أننا سعداء أن نهلك، وكما تعلم، إننا نموت مسرورين، فنحن لا ندافع عن أنفسنا».

قال الأسيوي ضاحكاً: «ويمكنك القول كذلك أنّنا سعداء لأنّنا ولدنا، فالأمر يبدو لك قدراً محتوماً، ربما يبدو لي ولادة. كلاهما وهم، فالرجل الذي يؤمن بان الأرض منضدة ثابتة تحت السماء يرى كذلك شروق الشمس وغروبها ويؤمن بهما، بالفجر والقدر المحتوم ـ وكلّ الرجال، معظمهم، يؤمنون بالمنضدة الثابتة تلك! النجوم نفسها لا تعرف شيئاً عن الشروق والغروب».

صاح توفو: «ألم تغرب النجوم، أليس لها نهاية محتومة كذلك، في نظرنا، وفي نظر أعيننا».

ملأ الأقداح، مجاملاً، مبتسماً، إذ كان هو دائماً من يقوم بالسكب. فذهب وبيده ابريق فارغ ليجلب المزيد من النبيذ. ودوّت موسيقى دوّامة الخيل.

التمسهم توفو قائلاً: «لنذهب هناك، إنها رائعة جداً»، فذهبوا إلى دوّام الخيل، ووقفوا إلى جانب الحاجز المصبوغ، وشاهدوا اللعبة تدير حلقاتها، التي تسبّب الدوار، في اللمعان الثاقب للزركشة والمرايا. شاهدوا مائة طفل قد انصبّت أعينهم بنهم

على اللمعان. شعر كلنكسر لحظة بمتعة كبيرة ببدائية هذه الماكنة الدوارة. وسمتها الافريقية، هذه الموسيقى الآلية، هذه الصور والألوان المبهرجة، والمرايا والأعمدة المزخرفة زخرفة جنونيّة. كلّ شيء نمّ عن أطباء وشامانيين [٤٩]، عن سحر وتزمير أحمق[٥٠] قديم العهد، وكلّ ذلك التألق الوحشي العجيب لم يكن في حقيقته سوى التماعة مفاجئة للطعم الزائف الذي يظنّه طائر الكركي سمكة منو.

كان لا بدّ أن يركب كلّ طفل دوّامة الخيل. فأعطى توفو نقوداً للأطفال، وأومأ الظلّ للأطفال أن يقتربوا. فتجمّعوا حول المحسن إليهم، وتعلّقوا بأذياله، وتوسّلوا إليه وشكروه. كانت ثمة طفلة جميلة شقراء تبلغ حوالي الثانية عشرة، تطلب مراراً، فكانت تركب في كل دورة. وفي لمعان الأضواء كانت تنورتها القصيرة تطير حول ساقيها الصبيانيتين. بكى أحد الأطفال. تشاجر الأولاد. رنّت الصنوج رنيناً حاداً مع صوت الأرغن، وصبّت النار في الايقاع- والأفيون في النبيذ. وقف الأربعة مدّة طويلة وسط الجلبة.

ثم عادوا إلى منضدتهم الهادئة تحت الأشجار. فملأ الأرمني الأقداح بالنبيذ، هيج القدر وابتسم ابتسامة مشرقة.

---

(٤٩) الشامانية دين بدائي من أديان شمال آسيا وأوروبا يتميز بالاعتقاد بوجود عالم محجوب هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف لا يستجيب إلا للشامان. والكاهن الشاماني يستخدم السحر لمعالجة المرضى وكشف المستتر والسيطرة على الأحداث. (المترجم)

(٥٠) إشارة إلى الاسطورة الألمانية (زمار هاملين)، وترمز إلى شخص يجعل الآخرين يحلفوا به وخصوصاً في مغامرة حمقاء. (المترجم)

غنّى كلنكسر: «دعونا اليوم نعب ثلاثمائة كأس». أصفر شعّ شعره الذي أحالت لونه الشمس، هدرت ضحكته. ربضت السوداوية مارداً على قلبه المنقبض. رفع كأسه ليشرب نخباً، حيّا القدر، وحيّا الرغبة في الموت، نغمة تسنغ تسي. اصطخبت موسيقى دوّامة الخيل ودوّت. لكن الفزع كان يكمن داخل قلبه، فالقلب لم يكن يريد أن يموت، لقد كان القلب يكره الموت.

فجأة إنقضّ من الحانة على الليل المزيد من الموسيقى، صاخبة مفرطة. وفي الزاوية التي بجانب رفّ الموقد الذي اصطفت عليه بترتيب قناني النبيذ، اشتعل عازف البيانو، وأطلق رشاش النار، وحشيّاً، مستبدّاً، طائشاً. صرخ الأسى من أوتار متنافرة، وأطلق ايقاع ساحق ماحق تنافراً نائحاً. كان هنا زحام كذلك، نور، ضجة، شبان وفتيان يرقصون، والنادلة العرجاء كذلك، وتوفو. كان يرقص مع الفتاة الصغيرة الشقراء، وكلنكسر يرقبهم. كان ثوبها الصيفي القصير يلتفّ برشاقة وعذوبة حول ساقيها الجميلتين النحيلتين. وكان توفو يبتسم بمودّة، يطغى عليه الحبّ. جلس الآخرون عند رفّ الموقد، كانوا قد أتوا من الحديقة، وكانوا قريبين من مصدر الموسيقى، في وسطها تماماً. رأى كلنكسر أنغاماً، وسمع الواناً. أخذ الساحر من الرفّ قنينة ثم أخرى، فتحهما، وسكب. لم تضطرب ابتسامته قط على وجهه الأسمر الذكي. دوّت الموسيقى دويّاً خائفاً في البهو ذي السقف المنخفض. بهدوء فتح الأرمني ثغرة في صف القناني العتيقة على الرف، مثل سارق معبد يأخذ كؤوس القربان الثمينة من المذبح واحداً بعد آخر.

همس المنجم في أذن كلنكسر وهو يملأ قدحه: «إنّك فنان

عظيم، فأنت من أعظم فنّاني هذا العصر. ولك الحق، كلّ الحق، في أن تدعو نفسك لي بو. لكنّك، يا لي بو، رجل مسكين منهك معذّب، يركبه القلق. لقد ابتدأت عزف موسيقى القدر المحتوم، فأنت تجلس مغنّياً في بيتك المشتعل، الذي أشعلت النار فيه بنفسك، ولست سعيداً بذلك، يا لي بو، حتى لو شربت ثلاثمائة كأس كلّ يوم ونادمت القمر. لست تسعد بذلك، بل أنت نادم جدّاً يا مغنّي القدر المحتوم. ألا تكفّ؟ ألا تريد أن تواصل؟

شرب كلنكسر وهمس بصوته الأجشّ بعض الشيء: «هل بإمكان المرء تغيير المصير؟ هل للإرادة حرّية؟ هل بإمكانك، أيّها المنجّم، أن تقود نجومي على نحو مختلف؟».

ـ «لا أستطيع أن أقودها، بإمكاني تأويلها فحسب. أنت نفسك فقط تستطيع قيادتها. إن للإرادة حرّية. هذه حكمة المجوس».

ـ « لمَ يفترض بي أن أمارس حكمة المجوس عندما أكون قادراً على ممارَسة الفنّ؟ أليس الفن أمراً حسناً مثلها تماماً؟ ».

ـ «كلّ شيء حسن، وما من شيء حسن. إنّ حكمة المجوس تمحو الأوهام. إنها تمحو أسوأ الأوهام، الذي نسمّيه (الزمن). ».

ـ «ألا يفعل الفن ذلك كذلك».

ـ «إنّه يحاول ذلك. هل أن تموزك المرسوم الذي تحتفظ به في حافظة أوراقك كاف لك؟ هل محوت الزمن؟ ألا تخشى الخريف، الشتاء؟».

أطلق كلنكسر آهة ولاذ بالصمت. صامتاً شرب. صامتاً ملأ المجوسيّ قدحه. دمدم البيانو الآلي مطلق العنان على نحو محموم.

طفا وجه توفو بهيئة ملائكيّة بين الراقصين. لقد انقضى تمّوز.

كان كلنكسر يلعب بالقناني الفارغات على المنضدة فيرتّبها على شكل دائرة.

صاح: «هذه مدافعنا، بهذه المدافع نطلق النار على الزمن فنمزّقه إلى أشلاء، والموت إلى أشلاء، والتعاسة إلى أشلاء. لقد أطلقت النار على الموت بالألوان كذلك، بالأخضر المتوهّج، والأحمر المشرق المتفجّر، والقرمزي المحمرّ العذب. غالباً ما أصبته في راسه، وأدخلت الأبيض والأزرق في عينه. غالباً ما جعلته يفرّ راكضاً. سألقاه كثيراً من جديد، وأتغلّب عليه، وأخدعه. انظر إلى الأرمني. إنّه يفتح قنينة عتيقة أخرى فتطلق الشمس الحبيسة لمواسم الصيف الماضية النار في دمانا. الأرمني يساعدنا، كذلك، في إطلاق النار على الموت، الأرمني لا يعرف، كذلك، سلاحاً آخر ضد الموت».

كسر المجوسي قطعة خبز وأكل.

ــ «لا أحتاج سلاحاً ضدّ الموت لأنه لا يوجد موت. يوجد أمر واحد فحسب: الفزع مكن الموت. وذلك يمكن علاجه. فثمة سلاح لاستخدامه ضده. إنها مسألة ساعة للتّغلبّ على الفزع. لكن لي بو لا يريد ذلك لأنه يعشق الموت، فهو يعشق فزعه من الموت، وكآبته، وتعاسته. إنه فزعه حسب مَنْ علّمه كلّ ما يستطيع فعله وكلّ شيء لأجله نحبه».

رفع كاسه ساخراً إلى كأس كلنكسر. التمعت أسنانه، وازداد وجهه جذلاً شيئاً فشيئاً، فالحزن كان يبدو غريباً عليه. لم يُجب أحداً. أطلق كلنكسر مدفعه النبيذي نحو الموت. حام الموت عند

الأبواب المفتوحة للحانة التي غصّت بالناس وبالنبيذ وبموسيقى الرقص. حام الموت عند الأبواب، هزّ الأكاسيا السوداء برفق، وتربصّ معتماً في الحديقة. كلّ شيء في الخارج طغى عليه الموت وامتلأ موتاً، هنا في البهو المزدحم فحسب ما زالوا يقاتلون، يقاتلون قتالاً رائعاً وشجاعاً المحاصر الأسود الذي كان يزمجر عند النوافذ.

نظر المجوسيّ عبر المنضدة ساخراً، وملأ الأقداح ساخراً. كان كلنكسر قد كسر أقداحاً كثيرة. وكان المجوسي قد أعطاه أقداحاً جديدة. كان الأرمني قد شرب كثيراً كذلك، لكنه جلس منتصباً مثل كلنكسر.

قال بصوت خفيض ساخرا: «لنشرب، يا (لي) أنت تعشق الموت، كما تعرف، فأنت تريد أن يقضي عليك القدر، إنك فرح لتذوّق طعم الموت. ألم تقل ذلك، أم أنّي خدعت نفسي ـ أم أنّك على أية حال خدعتني وخدعت نفسك؟ لنشرب يا (لي)، ليقضي علينا القدر.

استشاط كلنكسر غضباً، فقام، ووقف منتصباً طويلاً، الباشق العجوز بوجهه حاد القسمات، بصق في النبيذ، وقذف بكأسه الملأى على الأرض. انسكب النبيذ الأحمر في البهو، فعلا الشحوب وجوه أصدقائه، وضحك الغرباء.

لكن المجوسيّ التقط قدحاً جديداً مبتسماً بصمت، وملأه مبتسماً، وقدّمه إلى لي بو مبتسماً. ثم ابتسم (لي)، ابتسم هو كذلك. رفرفت ابتسامة كضوء القمر على وجهه المكفهِّر.

صاح: «أيّها الأصدقاء، ليتكلّم هذا الأجنبي! فالثعلب العجوز

يعرف الشيء الكثير، لقد خرج من وكر عميق خفي. إنّه يعرف الشيء الكثير لكنّه لا يفهمنا. لقد بلغ من الكبر حتى أنه لا يفهم الأطفال. وقد بلغ من الحكمة حتى إنّه لا يفهم الحمقى. ونحن الذين على وشك الموت نعرف الموت أكثر منه. إننا بشر، ولسنا نجوماً. ترون يدي، تحمل كأساً صغيرة زرقاء من النبيذ! فهذه اليد، هذه اليد السمراء، بوسعها فعل أشياء كثيرة. لقد رسمت بفراشي كثيرة، وانتزعت من الظلمة أجزاء جديدة من العالم ووضعتها أمام أعين البشر. هذه اليد السمراء داعبت نساء كثيرات تحت الذقن، واغوت فتيات كثيرات. قبّلها كثيرون وسقطت الدموع عليها، وكتب توفو قصيدة لها. هذه اليد العزيزة، أيّها الأصدقاء، ستكون قريباً ملأى بالتراب والدود، ولن يمسّها أيّ منكم حينها. حسن جداً، لهذا السبب أحبّها. إني أحبّ يدي، أحبّ عينيّ، وأحب بطني الناعم الأبيض، أني احبها بأسف وازدراء وبرقّة متناهية لأنها جميعاً لا بدّ ان تذبل وتتفسخ قريباً جداً. أيّها الظلّ، الصديق المعتم، الجندي القديم الزائف عند قبر اندرسن[٥١]، ستلقى أنت كذلك المصير نفسه، أيّها الأعزاء اشربوا معي: ثلاثة أنخاب بصحة أعضائنا وأحشائنا! لتعش طويلاً.

شربوا النخب، وابتسم الظلّ ابتسامة معتمة من محجري عينيه العميقتين ـ وعلى حين غرّة مرّ شيء ما خلال البهو كالريح، كالروح. فجأة توقّفت الموسيقي وتلاشى الراقصون، كما لو أنّ الليل ابتعلهم، وانطفأ نصف الأضواء. نظر كلنكسر إلى الأبواب

---

(٥١) أغلب الظن أنه هانز كريسيتان اندرسن (١٨٠٥ ـ ١٨٧٥) وهو شاعر وروائي دنماركي، كتب قصصاً خرافية للأطفال. (المترجم)

السود. كان الموت يقف خارجها. لقد رأى الموت يقف هناك، وشمّ رائحته. كقطرات المطر على الأوراق بمحاذاة الطريق العام، تلك كانت رائحة الموت.

ثمّ أبعد لي بو كاسه عنه، دفع بكرسيه إلى الخلف، وسار سيراً وئيداً خارجاً من البهو إلى الحديقة المعتمة، واستمر في العتمة وحيداً، وبريق التأجج يومض فوق رأسه. ثوى قلبه ثقيلاً في صدره كالحجر على القبر.

أمسية في آب

كان كلنكسر قد أمضى العصر في (مانوزو) و(فيليا)، يرسم في الشمس والريح، وكان قد عبر فيليا، تعباً جداً، إلى قرية صغيرة نائمة والشفق يلملم أضواءه. نجح في إيقاظ زوجة صاحب الحانة ذات الشعر الأشيب، فجلبت له نبيذاً. جلس على جذع شجرة جوز في الخارج عند الباب، وفتح حقيبة الظهر، فوجد قطعة جبن وبضع خوخات باقية، وتناول عشاءه. جلست المرأة العجوز قريباً، محنيّة درداء، وتحدّثت بحنجرة متغضّنة وبعينين عجوزتين ساكنتين عن حياة قريتها الصغيرة وعائلتها، عن الحرب والأسعار المتصاعدة، عن حال الحقول، عن النبيذ والحليب وما يكلّفان، عن الأحفاد المتوفّين والأبناء المهاجرين، فانبسطت بين يدي كلنكسر كلّ كواكب حياة المرأة الريفية ومواسمها انبساطاً واضحاً بهيجاً فجّاً بجمالها الضئيل، ملأى بالمسرّات والهموم، مفعمة بالقلق والحياة. أكل كلنكسر، شرب، ارتاح، انصت، وسأل عن الأطفال والماشية، عن القسّ والمطران، وأثنى بودٍّ على النبيذ التعس، قدّم لها آخر خوخة عنده، صافحها، تمنّى لها ليلة سعيدة، وتسلّق الجبل على مهله وهو يستند إلى عصاه مثقلاً بحقيبة الظهر، خلال الغابة المتباعدة الأشجار إلى فراشه ليمضي الليل.

لقد كانت تلك الساعة البهيّة، وضوء النهار ما زال يشعّ في

كل مكان، إلّا أن القمر كان قد سطع بنوره، والخفافيش المبكرة تغطس في الهواء الأخضر الوامض. كانت إحدى حافتي الغابة تتلاشى في الضوء الأخير، جذوع الكستناء اللامعة إزاء الظلال السود. كان ثمة كوخ أصفر يشعّ إشعاعاً هادئاً ضوء النهار الذي كان قد امتصه، متوهّجاً برقّة مثل التوباز (٥٢). وكانت الدروب الصغيرة تسير وردّية وبنفسجية عبر المروج والكروم والغابات. كان هنا وهناك غصين أكاسيا قد اصفرّ. وكانت السماء الغربيّة تتدلّى ذهبية وخضراء فوق الجبال الزرق المخملية.

آه لو كنت قادراً على العمل الآن، في الربع الساعة الأخير المسحور هذا من يوم الصيف الناضج الذي لن يأتي مرّة أخرى! ما كان أجمل كلّ شيء جمالاً لا يوصف في هذا الوقت! ما أهدأه، وما أحسنه، وما أكثر عطاءه، كما لو كان مفعماً بالله.

جلس كلنكسر على العشب البارد، مدّ يده على نحو آلي إلى قلمه الرصاص، ثم ترك مبتسماً يده تسقط ثانية. كان منهكاً من التعب. عبث بالعشب المتيّبس، وبالتراب الجاف المتفتّت. كم من الوقت سيمضي، ثم تكون هذه اللعبة الرائعة قد انتهت! كم من الوقت سيمضي، ثم تكون اليد والفم والعينان ملأى بالتراب! قبل بضعة أيام كان توفو قد أرسل له قصيدة. فتذكّرها الآن وردّدها ببطء هامساً:

ورقة إثر ورقة،

من شجرة حياتي تتساقط الأوراق.

(٥٢) التوباز حجز كريم من معدن التوباز الأصفر الشفاف. (المترجم)

يا بهاء العالم
ما أكثر ما تملأني،
ما أكثر ما تملأ، وترضي،
شدّ ما تُسكِر.
ما يتّـقد، اليوم،
قريباً يذوي.
قريباً تندب الريح
عند قبري الداكن.
إلام تنحني
على وجه الصغير.
دعوني أرى عينيها ثانية،
ففي عينيها نجمتي.
لا شيء آخر يقتضي البقاء،
فكل ما يموت، سعيداً يموتْ.
إلام الأبدية تبقى حسب
تلك التي منها أتينا،
برشاقة يعزف إصبعها،
ويخطّ في الهواء: اسمنا.

طيب، لقد كان أمراً حسناً كان كذلك. كم حياةً أبقى

كلنكسر من حيواته العشر؟ ثلاث؟ اثنتان؟ كانت لا تزال أكثر من واحدة، أكثر من حياة واحدة محترمة عادية يوميّة مألوفة. وما مقدار ما رأى، كم من الورق وقماش الرسم كان قد غطّى، وكم من القلوب هيّج بالحب وبالبغض، في الفن والحياة، وما مقدار الغيظ والريح الجديدة التي كان قد أتى بها إلى العالم. لقد عشق نساء كثيرات، وحطّم كثيراً من التقاليد والحرمات، وتجرّأ على فعل كثير من الأمور الجديدة. لقد شرب كؤوساً مترعة كثيرة، واستنشق أياماً كثيرة وليالي كثيرة مرصّعة بالنجوم، ولوّحته شموس كثيرة، وسبح في أمواه كثيرة. الآن جلس هنا، في إيطاليا أو الهند أو الصين، وريح الصيف كانت تهبّ نزوانيّة على تيجان الكستناء، كان العالم حسناً، قد بلغ الكمال. لا يهمّ إن رسم مائة لوحة أخرى أو عشر لوحات، إن عاش عشرين صيفاً آخر أو صيفاً واحداً. لقد كان تعباً، تعباً. كلُّ ما يموت، سعيداً يموت، عزيزي توفو الطيّب!

كان الوقت قد حان للذهاب إلى البيت. سيترنح داخلاً غرفته، وسيستقبله النسيم الداخل من خلال باب الشرفة. سيشعل ضوءاً ويفكّ أمتعته. ربّما يكون قلب الغابة بكلّ الأصفر الكرومي والأزرق الصيني جيّداً، إذ سيكوّن لوحةً ذات يوم. فلتذهب إذن، لقد حان الوقت.

إلا أنّه مع ذلك بقي حيث كان، والريح تلعب بشعره، جالساً بسترته الكتّانية ذات الطيّات، التي لطّختها الأصباغ، وفي قلبه الغارب ابتسامة وحزن. هبت الريح عليلة متأنّية، وانحدرت الخفافيش بهدوء وصمت إزاء السماء التي تخبو. كلّ ما يموت سعيداً يموت. الأم الأبديّة تبقى فحسب.

قد ينام هنا، ساعة في الأقلّ، فقد كان الجو دافئاً على أية حال. توسّد حقيبة الظهر وتطلّع في السماء. ما أجمل العالم، وما أكثر ما يرضي.

تناهى وقع خطوات، نازلة عن الجبل، تسير بقوّة بكعبين خشبين متأرجحين، بدت بين أشجار السرخس والوزال هيئة شخص امرأة، كان الوقت قد أمسى حالكاً جدّاً فلم يتمكن من تبيّن ألوان ثوبها. اقتربت بخطوات ثابتة هادئة. نهض كلنكسر واقفاً وصاح أن مساء الخير. بدأت بالتكلّم قليلاً، ثم صمتت لحظةً. نظر في وجهها، كان يعرفها لكنّه لا يستطيع أن يتذكّر أين رآها. كانت جميلة سمراء، وأسنانها الجميلة المتينة تلتمع. صاح: «حسناً، حسناً». وقد مدّ يده لها. شعر أن شيئاً ما يربطه بهذه المرأة، ذكرى صغيرة. «ألا نعرف بعضنا»؟

ــ «مادونا! لماذا، أنت الرسّام من كاستانيتا. أما زلت تتذكرني؟» نعم، لقد عرف الآن. كانت فلّاحة من وادي تافيرن (٥٣)، ففي يوم من الأيام، في الماضي الغائم المشوّش من هذا الصيف كان يرسم قريباً من دارها بضع ساعات، وأخذ ماءً من بئرها، وغفا ساعة في ظلّ شجرة التين، وحصل أخيراً على كاس نبيذ وقبلة منها.

قالت شاكيةً: «إنّك لم تعد قط، وقد قطعت وعداً بذلك».

كان في صوتها العميق شهوانية وإثارة، فانتعش كلنكسر.

---

(٥٣) لاسم العلم هذا دلالة ضمنية، إذ يعني قديماً (حانة) أو (نُزل). (المترجم)

ـ «ايكو [٥٤]، إنّه لأمر حسن جداً أنّك أتيت إليّ الآن، ما أسعد حظي في هذا الوقت تماماً، عندما أكون وحيداً جدّاً وحزيناً».

ـ «حزين؟ لا تحاول خداعي، سنيور، إنك مازح هازل، لا يمكن للمرأة أن تصدّق كلمةً ممّا تقول. يجب أن أذهب الآن».

ـ «آآ، إذن سأرافقك».

ـ «هذه ليست طريقك، وليس ثمة حاجة لذلك كذلك. ماذا يمكن أن يحدث لي؟».

ـ «ليس لك، بل لي. فما أسهل أن يأتي رجل ويدغدغ عواطفك فيذهب معك ويقبّل فمك العذب وحنجرتك ونهدك الجميل، شخص آخر غيري. كلا، لا يمكن السماح بذلك».

كان قد طوّق رقبتها بذراعه ولم يدعها: «يا نجمتي الصغيرة، يا حبيبتي، يا خوختي الحلوة الصغيرة. اقضميني، وإلا سآكلك».

قبّلها في فمها القويّ المفتوح، مالت ضاحكة إلى الخلف، واستسلمت ما بين المقاومة والاعتراض، فقبّلته بدورها، هزّت رأسها، ضحكت، وحاولت تخليص نفسها. أمسك بها بإحكام، وفمه على فمها، ويده على نهدها. كان لشعرها رائحة الصيف، رائحة القشّ، والوزّال، والسرخس، والعُليق. أعاد رأسه إلى الخلف وهو يأخذ نفساً عميقاً ورأى النجمة الأولى تبزغ صغيرة بيضاء في السماء التي خبت. لم تنطق المرأة، وارتسمت على وجهها ملامح الجدّ. تنهّدت، ووضعت يدها على يده وضغطتها بشدّة

---

(٥٤) إيطالية تعني: اسمع. (المترجم)

على نهدها. فانحنى بهدوء، ودسَّ ذراعه في الفجوة المتراخية بين ركبتيها، وأضجعها على العشب.

سألته كأنها بنت صغيرة: «أتودّني؟ بوفيرا مي!» (٥٥).

شربا الكأس. مسحت الريح على شعريهما وحملت أنفاسهما معها. قبل أن يفترقا بحث في حقيبته وجيوب معطفه ليرى إن كان لديه ما يعطيها. فوجد علبة فضية صغيرة ما زالت نصف ممتلئة بالتبغ، فأفرغها وأعطاها لها.

طمأنها قائلاً: «لا، ليست هدية، لا بالتأكيد، تذكار فحسب، حتى لا تنسيني».

قالت: «لن أنساك». و«هل ستأتي مرّة أخرى؟».

فغشاه الحزن، وقبّل على مهل كلتا عينيها وقال: «سآتي مرّة أخرى».

وقف لحظةً دون حراك مُنصتاً لقبقابها الخشبي يطقطق نزولاً، على المرج في الأسفل، وخلال الغابة، يطقطق على الأرض، على الصخر، على أوراق الشجر، وعلى الجذور. والآن قد ذهبت. كانت الغابة سوداء إزاء الليل، والريح تمسّ وجه الأرض اللامرئية مسّاً حنوناً. كان لشيء ما، ربّما الفطر، أو ربّما سرخس ذابل رائحة الخريف النفّاذة.

لم يستطع كلنكسر أن يقرّر الذهاب إلى البيت. فما كان جدوى تسلّق الجبل في هذا الوقت، والدخول إلى الغرفة مع كلّ

(٥٥) ايطالية تعني: مسكين أنا!

الصور؟ فتمدّد على العشب ونظر إلى النجوم. وأخيراً نام، وظلّ نائماً حتى أيقظته في ساعة متأخّرة من الليل صرخة حيوان أو عصفة ريح أو برودة الندى. حينها تسلّق باتجاه كاستانيتا، فوجد بيته، بابه، غرفته. وكانت هناك رسائل وزهور؛ لقد مرّ به بعض الأصدقاء.

وعلى الرغم من تعبه فقد أطاع عادته القديمة المترسّخة كل ليلة؛ في أن يفكّ كلّ عدّته وينظر إلى تخطيطات النهار على ضوء المصباح. تلك التي تصوّر أعماق الغابة كانت جيّدة، والنباتات والصخور في الظلّ المرقش بالضوء شعّت هادئةً ونفيسةً مثل حجرة كنز. لقد كانت فكرة سارة أنه رسم بالأصفر الكرومي، والبرتقالي، والأزرق، فحسب وترك الأخضر الكرومي. فبقي يدرس الصفحة مدّةً طويلة.

ولكن لِمَ؟ لِمَ كانت كلّ هذه الصفحات ملطّخة بالالوان؟ لِمَ كلّ الكدحَ، وكلّ العرق، وكلّ التوق القصير الشديد النشوانَ للإبداع؟ أكان ثمّة خلاص؟ أكان ثمّة سكينة؟ أكان ثمّة سلام؟

حالما نضا ثيابه غاض منهكاً في فراشه، وأطفأ المصباح ملتمساً النوم، وهو ينشد لنفسه مترنّماً بهدوء بأشعار توفو.

قريباً تندب الريح

عند قبري الداكنِ.

كلنكسر يكتب إلى لويس القاسي

كارو[٥٦] لويجي، لقد مضى وقت طويل منذ سماعي صوتك. أما زلت تعيش في النور؟ هل النسر قد بدأ يقضم عظامك؟

هل استخدمت يوماً إبرة لنخز ساعة متوقِّفة؟ لقد فعلتُ ذلك مرةً، وفجأة نفذ الشيطان إلى داخل الساعة وردّد بسرعة كلّ الزمن الذي مضى، فتسابق العقربان دائرين على وجه الساعة دوراناً جنونيّاً بضجيج، غريب، بريستسمو[٥٧]، حتّى فرقع كلّ شيء فجأة وأسلمت الساعة الروح. إنّ ذلك بالضبط ما هي عليه حالنا هنا الآن؛ فالشمس والقمر يركضان مسعورين عبر السماء، الأيام تتطاير، والزمن يفرّ مني كما لو كان يتسرّب من حقيبة مثقوبة. آملُ أن النهاية ستأتي فجأة، وأنّ هذا العالم المخمور سيتوقّف بدل أن يتخلّف ثانية في إيقاع مبجّل.

كنت طوال الأيام منشغلاً للغاية حتى أني لم أكن قادراً على التفكير في أيّ شيء (بالمناسبة، ما أكثر ما يبدو ذلك مضحكاً عندما أقول هذه التي تسمّى «عبارة» بصوت عال لنفسي: أكون قادراً على التفكير في أيّ شيء). لكنّي غالباً ما أشتاق إليك في

---

(٥٦) ايطالية تعني: عزيزي.

(٥٧) مصطلح موسيقي يعني بسرعة فائقة.

الأماسي. عادة أجلس في الغاية في أحد (الكهوف) أشرب النبيذ الأحمر المعروف الذي يكون ذا نوعية رديئة جداً عموماً. إلّا أنّه مع ذلك يجعل الحياة تطاق ويساعد على النوم. لقد غلبني النوم فعلاً بضع مرّات وأنا جالس إلى المائدة في الحانة الجبليّة. فأثبّت بذلك لأهالي المنطقة المبتسمين أن اصابتي بالنيورشنيا(٥٨) لا يمكن ان تكون فعلاً بتلك الدرجة من الخطورة. أحياناً يكون معي أصدقاء وفتيات فأمرّن أصابعي على لدانة الأطراف الأنثوية وأتجاذب أطراف الحديث عن القبعات والكعوب والفنّ. وأحياناً أخرى نكون محظوظين فيكون مزاجنا رائقاً، حينها نتصايح ونضحك طوال الليل، ويسرّ الناس أن كلنكسر شخص مرح ظريف. هنا امرأة جميلة جداً تسأل عنك باهتمام عاطفي كلما رأيتها.

إنّ الفن الذي نمارسه، كلانا، ما زال يعتمد، كما قد يقول أحد الأساتذة، على الموضوع اعتماداً كبيراً للغاية (ما أجمل أن نرسم لوحة تكون لغزاً). إنّنا ما زلنا نرسم أشياء «الواقع»: الناس، الأشجار، أسواق الريف الموسميّة، سكك الحديد، المناظر الطبيعيّة ـ على الرغم من أن ذلك بخط حر نوعاً ما وبطريقة تكون مزعجة للبرجوازيّين(٥٩). يسمّي البرجوازيون هذه الأشياء «واقعية»، تلك التي يراها كلّ الناس، أو في الأقل أناس كثيرون، ويصفونها وصفاً

(٥٨) النهك العصبي: حالة صحية متردية، وضعف عام، يصاحبان حالة الانهاك في الجهاز العصبي.

(٥٩) الطبقة التجارية المتوسّطة التي لا تنتمي إلى طبقة النبلاء ولا إلى الطبقة العاملة، رجل المدينة، التاجر، الصناعي. استخدم هذه المصطلح عموماً للدلالة على من لا ينتمي إلى الطبقة العاملة. وهو مرادف في دلالاته الأخرى للتقليديين والمحافظين واللأصيل. (المترجم)

متقارباً بالطريقة نفسها. حالما ينقضي هذا الصيف فإنّي أفكر في عدم رسم أيّ شيء حيناً من الوقت سوى الخيالات وخصوصاً الأحلام. وستكون بعضها بالطريقة التي تعجبك، مضحكة ومدهشة مثل حكايات كولوفينو صيّاد الأرانب في كاتدرائية كولونيا. وحتّى لو شعرت أنّ الأرض مادت تحت قدميّ بعض الشيء، وحتّى لو كان لديّ عموماً توق بسيط للمزيد من السنوات والمزيد من الانجازات، فما زلت أودّ أن أرسل بضعة صواريخ اخرى أشدّ عنفاً إلى جوف الكون. كتب لي هاو مؤخّراً أنّه سعيد لملاحظة أنّي أمرّ بمرحلة شباب ثانية في آخر أعمالي. وهناك شيء من هذا القبيل. يبدو لي أني قد بدأت فعلاً أرسم هذا العالم فحسب. لكن ما أمرّ به لا يشبه كثيراً موسم الربيع باعتباره انفجاراً. إنّه لأمر مذهل المقدار الكبير من الديناميت الذي لا يزال متبقّياً في نفسي. إلّا أنّ تفجير الديناميت يصعب في احد تلك الميادين التي تكون مؤلفة في معظمها من الخشب.

عزيزي لويس، غالباً ما يضحكني أننا الخليعان خجولان في أعماقنا خجلاً مؤثّراً ونفضّل أن نرمي بكؤوس النبيذ أحدنا على الآخر على أن نبدي أيّاً من مشاعرنا. عسى أن نبقى كذلك، أيّها القنفذ العجوز!

أقمنا مؤخّراً حفلاً كبيراً للخبز والنبيذ في تلك الحانة الجبليّة قرب بارينغو. كان رجع غنائنا للأغاني الرومانية القديمة رجعاً رائعاً في غابة الأشجار العالية عند منتصف الليل. إنّنا نحتاج قدراً قليلاً جدّاً لنسعد عندما نكبر وتبدأ أقدامنا في التجمّد: ثماني إلى عشر ساعات من العمل يوميّاً، وقنينة من البايدمونتيز، ونصف رطل من الخبز، وسيجار، وبضع فتيات، وطبعاً جو دافئ ورائق.

ذلك ما لدينا؛ فالشمس تقوم بواجبها على نحو رائع، وقد سفعت رأسي فكأنه رأس مومياء.

أشعر في بعض الأيام أنّ حياتي وعملي يبتدئان الآن فحسب، ولكن يبدو لي أحياناً أنّي قد كدحت ثمانين عاماً ويمكنني قريباً أن أطالب بالسلام والراحة. كلّ امرئ يصل النهاية يوماً، يا عزيزي لويس، وكذلك سأصل أنا، وستصل أنت كذلك. الله يعلم ما أنا كاتب إليك؛ فمن الواضح أني لست على ما يرام. ربّما وسواس المرض، فعيناي تؤلمانني كثيراً، وأحياناً يستولي عليّ هاجس من أحد البحوث عن انفصال الشبكية كنت قد قرأته قبل سنوات مَضَيْن.

عندما أنظر من باب شرفتي إلى المنظر الذي تعرف، أدرك أنّ ما زال علينا الاستمرار في العمل المثابر مدّة ليست بالقصيرة. العالم جميل ومتنوِّع الأشكال والألوان على نحو لا يوصف؛ فهو يدعوني قارعاً أجراسه ليلاً ونهاراً من خلال بابه الأخضر العالي، صارخاً ومطالباً، وأنا أركض مرّة بعد أخرى واختطف قطعة منه، قطعة صغيرة لي. لقد فعل الصيف فعله في الخضرة في هذه النواحي، فلم أكن لأفكر قط أنّي سألجأ مرّة أخرى إلى الأحمر الإنكليزي واللون الترابي. ثم أنّ الخريف بكامله ينتظر، الحقول بعد الحصاد، قطف أعناب الخمور، حصاد الذرة، الغابات القرمزية. سأعيش كلّ ذلك مرّة أخرى، يوماً بعد آخر، وأقوم ببضع مئات من الدراسات الإضافية لها. لكنّي حينها، وأنا شاعر بذلك، سأعود إلى دواخلي وكما فعلتُ حيناً من الوقت عندما كنت شاباً، سأرسم مرّة أخرى من الذاكرة ومن الخيال تماماً، أكتب القصائد وأنسج الأحلام. وذلك يتطلّب القيام به كذلك.

ذات مرة قال رسّام باريسي كبير طلب منه فنّان شاب النصيحة: «أيّها الشاب، إن أردت ان تكون رسّاماً، لا تنس أنّ من الضروري أن تاكل جيّداً في المقام الأول. ثانياً، الهضم مهمّ، وتاكد أنّ أمعاءك تعمل بانتظام. ثالثاً، احتفظ دوماً بعشيقة جميلة صغيرة». قد يعتقد المرء اني تعلّمت هذه القواعد ونادراً ما خرقتها. إلّا أن هذا العام، إنّها لعنة، فحتى تلك الأمور البسيطة لم تعد تسير على ما يرام معي. اني آكل قليلاً، وعلى نَحْو سيّء، اغلب الأحيان لا شيء سوى الخبز أياماً بكاملها على نحوٍ متصّل. وأحياناً أصاب باضطراب في المعدة (ودعني اخبرك، إنّها أقل الاصابات نفعاً!) وليس لي العشيقة الصغيرة الملائمة، لكنّني أشغل نفسي بأربع أو خمس نساء فأنا منهك تماماً مثلما أنا جائع. إن في ماكنة الساعة خلل؛ فهي تسرع مرة اخرى منذ أن وخزتها بالابرة، لكنّها سريعة سرعة الشيطان، وتطلق قرقعة ملعونة غريبة كما يفعل. ما أبسط الحياة عندما تكون الصحّة جيدة. لم تستلم منّي رسالة طويلة كهذه من قبل، إلّا، اللهم، في الوقت الذي كنّا نتجادل فيه على لوحة الألوان. سأتوقّف، فالساعة قاربت الخامسة والضوء الرائع بدأ ينتشر. التحيّات الحارة من

المخلص كلنكسر

ملاحظة:

تذكّرت أنّك أُعجبت بلوحة صغيرة من لوحاتي، أكثرهن تميّزاً بالطابع الصيني، ذات الكوخ، والطريق الأحمر، والأشجار المثلّمة بأخضر فيرونيز، والمدينة البعيدة كأنّها لعبة في خلفيتها. لا

أستطيع إرسالها لك في الوقت الحاضر لأني ا أعرف أين انت. لكنّها لك ـ أردت أن تعرف ذلك من باب العلم بالشيء.

كلنكسر يرسل قصيدة
إلى صديقه توفو

(كتبت أيام كان يرسم صورته الشخصيّة)

ثملاً أجلسُ ليلاً في الغابة التي تجلدها الريح.
الخريف يقضم الغصون الشادية،
وصاحب الحانة يهرع إلى القبو مترنِّماً
ليملأ زجاجة خمري الخاوية.

غداً، غداً سيقطع الموت الشاحب
لحمي الأحمر بمنجلهِ المجلجل.
إنّي، منذ زمن بعيد، أعرفُ
أنّ خصمي الجبّار يكمن متربّصاً،
يكمن في انتظاري.
ولأسخر منه فإنّي أغنّي طوال نصف الليل،

أغنيةً هاذية مخمورة للغابة الحزينة،
ولأضحك على وعيده أغنّي،
ولأهزأ بتهديده أشرب.

هائماً زمناً طويلاً،
عانيت كثيراً وفعلت الكثير،
والآن أجلس مساءً أشربُ،
وانتظر خائفاً
حتى يفصل المنجل البارق رأسي
عن قلبي الوثّاب.

البورتريه الشخصي

في الأيام الأولى من أيلول، وبعد أسابيع طويلة من فترة جافّة جفافاً غير معتاد من شمس لاهبة، كان ثمة بضعة أيام ماطرة. أثناء هذا الوقت رسم كلنكسر، في الصالون ذي النوافذ العالية لقصره في كاستانيتا، بورتريه شخصيّ وهو يوجد الآن في فرانكفورت.

إنّ هذا الرسم المخيف والجميل جمالاً ساحراً على الرغم من ذلك، وهو آخر عمل له أنهاه تماماً، قد أتى عند نهاية أعمال الصيف، وعند نهاية مرحلة عمل عاصفة متّقدة حماساً على نحو لا يصدّق، وكان تاجَ مجدها. لقد أثار الكثير من التعليقات ذلك انّ كلّ من كان يعرف كلنكسر يميّزه حالاً ودون ان يخطئه في هذه اللوحة على الرغم من أنّه لم يكن ثمة بورتريه بعيد كلّ هذا البعد عن الشبه الطبيعي.

ومثل جميع أعمال كلنكسر الأخيرة، فإنّ هذا البورتريه الشخصيّ يمكن النظر إليه كذلك من زوايا نظر مختلفة كثيرة. لبعضهم، خصوصاً اولئك الذين لم يعرفوا الرسّام شخصياً، فإنّ اللوحة في المقام الأوّل سيمفونيّة من الألوان، ونسيج متوافق توافقاً مدهشاً ذلك أنّها على الرغم من تدرّج الألوان المشرق لها تمنح إحساساً بالسكون والفخامة. ويرى فيها آخرون المحاولة الأخيرة الشجاعة وحتّى اليائسة للتحرّر من الموضوع؛

فالوجه مرسوم مثل منظر طبيعي، ويذكِّر الشعر بالأوراق ولحاء الأشجار، ومحاجر العينين كأنّها صدوع في الصخر. ويقولون إنّ هذا الرسم يذكّرنا بالطبيعة فحسب كما تذكّرنا بعض أحفّة الجبل بوجوه البشر، وبعض أغصان الأشجار بالأيدي والأرجل ـ كلها على نحو بعيد جداً ورمزي محض. إلّا أنّ هناك الكثير ممَّن يرون، بالعكس من ذلك، الموضوع فحسب في هذا العمل، وجه كلنكسر فحسب، وقد حلّله وفسّره الفنّان نفسه برؤيا سايكولوجيّة خصبة اعتراف هائل، إقرار بالذنب[٦٠]، صارخ، مؤثِّر، مروِّع، لا يعرف الرحمة. إلّا أنّ آخرين، وبضمنهم بعض ألدّ خصومه، يرون في هذا البورتريه مجرّد نتاج جنون لكنكسر المزعوم وشهادة عليه. فهم يقارنون الرأس في اللوحة بالاصل الطبيعي، وبالصور، ويدلّون في تشوّهات الأشكال وتضخيمها على ملامح شبه زنجيّة متفسّخة حيوانيّة لها صفات الأسلاف. ويسهب بعض هؤلاء النقاد في الحديث عن الجوانب التعبيرية والفنطازيّة لهذه اللوحة؛ فهم يرون فيها نوعاً من عبادة الذات أحادية الجنون[٦١]، والتمجيد الكافر للذات، ونوعاً من جنون العظمة الديني. كلّ التأويلات من مثل هذه محتملة وكثير غيرها.

لم يخرج كلنكسر في الأيّام التي يرسم فيها هذا البورتريه، إلّا لشرب النبيذ ليلاً. كان يأكل الخبز والفاكهة فحسب الذين كان يجلبهما مدير منزله، ويتجوّل دون حلاقة، وكان يبدو حقّاً بجبينه الذي لوّحته الشمس وعينيه الغائرتين. كان يرسم من

---

(٦٠) وردت باللاتينية Peccavi وهي عبارة اعتذار مازح: لقد أخطأت! (المترجم)
(٦١) الجنون الأحادي Monomania تسلط أو استحواذ فكرة واحدة على عقل المرء حد الهوس. (المترجم)

الذاكرة جالساً؛ وكان يذهب بين الحين والآخر فحسب، وأثناء التوقّف عن العمل معظم الأحيان، إلى المرآة الكبيرة القديمة الطراز على الجدار الشمالي وقد رُسمت على إطارها أزهار متسلقة. فيمدّ برأسه إلى الأمام، واقفاً أمام المرآة، ويفتح عينيه على وسعهما، ويقوم بعمل حركات بوجهه.

رأى وجوهاً كثيرة، كثيرة خلف الوجه الكلنكسري في المرآة الكبيرة، بين تلك الزهور السخيفة المتماثلة، ورسم وجوهاً كثيرة في لوحته: وجوه أطفال عذبة ومتعجّبة، جبين الرجولة الأوّلي وصدغيها ملؤها الأحلام والحماس، عينين ساخرتين لرجل شروب، شفتي إنفانت بيردو(٦٢) ظامئ،مضطّهد، خليع، ساع يعاني. لكنّه أقام الرأس مهيباً ووحشياً، جعله وثنَ أدغال، يهوه(٦٣) غيّار، مُتيّم بنفسه، طوطم(٦٤) قد يضحّى له بالأطفال والعذارى. كانت هذه بضعاً من وجوهه. الوجه الآخر كان وجه رجل متفسّخ نزل به قدره المحتوم، ارتضى بمصيره: فالطحلب نما على جمجمته، والأسنان الشائخة مُعْوَجّة، وامتدت في الجلد الأبيض أخاديد، ونمت في الأخاديد حراشف وعفن. هذه هي الملامح التي أحبّ بعض الأصدقاء الرسم لأجلها على وجه الخصوص. فهم يقولون: هذا هو الإنسان، إيكي هومو(٦٥)، ها هو الإنسان الكئيب، الجشع، المتوحّش، الطفولي، الإنسان المعقّد لأواخر

(٦٢) فرنسية (enfant perdu) تعني الطفل الضائع، في عداد المفقودين، مينوس منه. (المترجم)

(٦٣) يهوه: اسم الله المستخدم في العهد القديم (المترجم)

(٦٤) طوطم: وثن أو رمز مقدس (حيوان أو نبات) يتخذ لأسرة أو قبيلة (المترجم)

(٦٥) لاتينية ecce homo تعني: انظر الرجل! وهو اسم يطلق على المسيح مرتديا إكليلا من الشوك. وهي كلمات بيلاطس عندما قدمه للناس.

عصرنا؛ الرجل الأوروبي المحتضر الذي يروم الموت، المتوتِّر بسبب كلّ توق، الذي أعلته الرذيلة، الجذلان بمعرفته لقدره المحتوم، المستعد لأيّ نوع من التقدّم، الناضج لأيّ نوع من التقهقر، المُذْعن للمصير والألم مثل اذعان مدمن المخدِّرات لسمِّه، وحيد، أجوَف تماماً، عمره عمر الدهر، فاوست وكرامازوف[٦٦] في آن واحد، بهيمة وحكيم، مكشوف تماماً، دون طموح تماماً، عار تماماً، يملأه الفزع الطفولي من الموت ويملأه الاستعداد المضني للموت.

إلّا انّه، أكثر نأياً، وأعمق، خلف كلّ هذه الوجوه، نامت وجوه أبعد وأعمق وأكبر سناً، وجوه ما قبل البشر، حيوانيّة، نباتيّة، حجريّة كما لو أنّ الرجل الأخير على الأرض كان في لحظة ما قبل الموت يستعيد ثانية وبسرعة الحلم كلّ أشكال العصور الغابرة عندما كان الكون فتيّاً.

في تلك الأيام المتوترة توتّراً جنونياً عاش كلنكسر كالنشوان، يعبّ الخمر ليلاً، ثم يقف وشمعة بيده، قبالة المرآة القديمة، يتفحصّ وجهه في زجاجها، وجهاً ذا تكشيرة مكتئبة لرجل متواتر الشرب. ذات ليلة كانت معه فتاة على الأريكة في مرسمه، وحين كان يضمّ جسدها العاري إليه حدَّق بعينين محمرّتين من فوق كتفها في المرآة، فرأى بجانب شعرها المرسل وجهه المشوّه، يملأه الشبق ويملأه الاشمئزاز من الشبق. أخبرها أن توافيه اليوم التالي، إلّا أنّها كانت قد ذُعرت فلم تعد.

---

(٦٦) إشارة إلى اسطورة الساحر الألماني في القرون الوسطى يبيع نفسه للشيطان ليمنحه القوة والمعرفة. وإشارة إلى الأخوة كرامازوف رواية الكاتب الروسي دستوفسكي. (المترجم)

كان قليلاً ما ينام ليلاً، وغالباً ما يستيقظ على أحلام مفزعة، ووجهه يتصبّب عرقاً، ومزاجه وحشيّ وقد أضنته الحياة. لكنّه سرعان ما يقفز ويحدِّق في المرآة، فيقرأ المنظر الموحش لتلك الملامح المهتاجة، متفحِّصاً إياها بتجهّم، أو بمقت، أو بابتسامة، كما لو كان يتشفى بدمارها. كان قد حلم حلماً رأى فيه أنّه يُعذب، فأُدخلت مسامير في عينيه، ومزقّت كلاليب منخريه، وعلى غلاف كتاب كان في متناوله رسم صورة بالفحم لهذا الوجه المعذّب، والمسامير في العينين. ولقد وجدنا الرسم الغريب بعد موته. وفي وقت آخر كان يصاب بما يشبه ألم الوجه العصبي، فكان يتلوّى على كرسيه، ضاحكاً وصارخاً من الألم ولمّا يزل مُبقياً وجهه المشوّه أمام زجاج المرآة متفحِّصاً الارتعاشات وساخراً من الدموع.

ولم يكن وجهه فحسب، أو وجوهه الالف، ما رسم في هذه اللوحة، ليست عينيه وشفتيه فحسب بل الوادي الموجوع لفمه، منحدرات جبينه المتشققة، يديه الشبيهتين بالجذور، أصابعه المرتعشة، التقليد الزائف للعقل، الموت في عينيه. ورسم مع التخطيط بالفرشاة المتفرد الموجز المزدحم، حياته، حبّه، إيمانه، يأسه. وإلى جانب ذلك رسم ثلة من النساء العاريات يُسَقْنَ في الريح الهائجة كالطيور، ضحايا ذُبحن للمعبود كلنكسر، ورسم شاباً له وجه شخص منتحر، وكذلك معابد وغابات، وإلهاً ملتحياً عجوزاً، جبّاراً وغبيّاً، ونهد امرأة مزقّه خنجر، وفراشات على أجنحتهن وجوه، وفي خلفية اللوحة وعلى حافة الفوضى الموت، شبح رمادي يغرز رمحاً صغيراً كالابرة في دماغ كلنكسر.

حين ظلّ ساعات يرسم، هدّه التعب، فسار في الغرفة مترنِّحاً دون يسر، والأبواب تصطفق خلفه. فأخذ قناني من الخزانة، وكتباً

من الرفوف، وبُسطاً من المناضد، واضطجع على الأرض يقرأ، وأخرج جسمه من الشبابيك متنفّساً تنفسّاً عميقاً، ونقّب عن رسم وصور قديمة وملأ الأرضيّات والمناضد والأسرّة والكراسي في كلّ الغرف بأكوام الأوراق، والصور، والكتب، والرسائل. تطاير كلّ شيء على نحو يبعث على الحزن عندما دخلت الريح المشبعة بالمطر من النوافذ. وبين الأشياء القديمة وجد صورته وهو طفل، اُلتقطت له وهو في سنّ الرابعة؛ كان يرتدي بدلة صيفيّة بيضاء وتحت شعره الأشقر الفَاتح، الأبيض تقريباً، كان يطلّ وجه صبيّ متحّد على نحو عذب. ووجد صور أبويه وصور حبيبات شبابه القديمات. كان كلّ شيء يهيمن عليه، يثيره، يوتّره، ويعذّبه، يقوده جيئة وذهاباً. أمسك بكلّ شيء ثم رمى الأشياء بعيداً، حتّى ارتعشت ذراعه مرّة أخرى فانكبّ على لوحته الخشبيّة ومضى يرسم. رسم الغضون أعمق فاعمق في صدوع البورتريه الشخصي، ووسّع معبد حياته، وخاطب بقوّة أكبر وأكبر سرمديّة كل الكائنات، وأنّ أنيناً أعلى وأعلى على زواله، وأعطى لمسات أعذب لشبيهه المبتسم، وسخر هازئاً من حتميّة تفسّخه. ثم هبَّ واقفاً مرّة أخرى كالأيل المطارد، وسار متثاقل الخطى كالسجين، خلال غرفه. شعّت المسرّة فيه وبهجة الخلق العظيمة مثل زوبعة مُغْرقة جذلى حتى طرحه الألم أرضاً مرّة أخرى وحطّم على وجهه كسَر آثار حياته وفنّه. صلّى أمام لوحته وبصق عليها. كان خجولاً، فكل مبدع مخبول. لكنه بالاذعان المعصوم، كإذعان السائر في نومه، وبجنون الإبداع فعل كلّ شيء عزّز عمله. وشعر، بإيمان عميق، إنّه بهذا النضال الوحشي مع البورتريه الشخصي أكثر منه مع القدر والحساب النهائي للفرد، كان يفعل أمراً إنسانياً، كونيّاً، ضروريّاً. وشعر أنّه كان يواجه مرّة اخرى مهمّة ومصيراً، وأنّ كلّ

القلق السابق وجهوده للتهرب وكل الاضطراب والهيجان كان مجرد فزع من مهمَّته ومحاولات للتهرب منها. والآن لا فزع ولا هرب، ليس إلا التقدّم، القطع والسلخ، النصر والهزيمة. لقد هزم وهُزم، عانى وضحك، وكافح شاقاً طريقه، قَتَل وقُتِل، ولد وولد.

حدث أن زاره رسّام فرنسي، فقاد مدير المنزل الزائر إلى فوضى وقذارة الغرفة المكتظّة. خرج كلنكسر من مرسمه، أشيب الشعر، غير حليق، على أكمامه أصباغ، وعلى وجهه أصباغ. فتبختر واسع الخطى مجتازاً الغرفة. نقل له الغريب كتاباً من باريس وجنيف، وعبّر له عن عميق احترامه. سار كلنكسر جيئة وذهاباً وبدا كأنّه غير مُصْغ. لاذ الضيف بالصمت وهو خجل، وبدأ يتهيّأ للمغادرة. حينها مضى إليه كلنكسر ووضع يده الملطّخة بالأصباغ على كتفه، ونظر عميقاً في عينيه، وقال على مهله جاهداً: «شكراً، شكراً أيّها اصديق العزيز. إني أعمل، ولا استطيع التحدّث. إنّ الناس دائماً ما يتحدّثون أكثر مما ينبغي. لا تغضب، وانقل تحيّاتي إلى أصدقائي. قلّ لهم إنّي أحبّهم».

ثمّ اختفى ثانية في الغرفة الأخرى.

عند نهاية يوم العذاب ذاك وضع اللوحة التي أنهاها في المطبخ الفارغ المهمل وأقفل الباب، ولم يُرِها قطّ لأيّ شخص. ثم تناول منوِّماً ونام طوال النهار والليل. ثم اغتسل وحلق، وارتدى ملابس نظيفة، وذهب إلى المدينة راكباً، واشترى فاكهة وسجائر ليأخذها إلى جينا.

الفهرس



هرمان هسه، أديب سويسري من أصل ألماني، وُلد في كالف في ألمانيا في ٢ تموز ١٨٧٧ من أبوين خدما في الهند في بعثة تحت رعاية بعثة بازل، وهي جمعية تبشيرية مسيحية بروتستانتية. عاش بداية شبابه مع عائلته المحافظة ثم استقلّ عنها واعتمد على نفسه وانخرط في مجال العمل وبشكل قاس، حيث بدأ عمله ساعاتيا ثم بائع كتب في مكتبة، بعدها اتخذ التأليف والكتابة مَنهجاً في حياته وعمله، وتزوج ثلاث مرات. توفي في ٩ آب ١٩٦٢.

على الرغم من أن توجهه الأدبي في بادئ الأمر كان صوب الشعر إلا أنه في ما بعد ألّف روايات فلسفية عديدة ومتنوعة.

كانت "لعبة الكريات الزجاجية" آخر روايات هسه، وخلال السنوات العشرين الأخيرة من حياته كتب العديد من القصص القصيرة معظم مواضيع تلك القصص استسقاها من طفولته، ونشر كذلك عدد من القصائد كانت الطبيعة موضوعها الأساسي في الغالب، وإلى جانب ذلك فقد كتب عدداً من المقالات الساخرة حول ابتعاده عن الكتابة لفترات من حياته، وبعد حصوله على جائزة نوبل في ١٩٤٦ تلقى عدداً هائلاً من الرسائل من الجيل الجديد من القراء الألمان الذي استكشف أعماله.

استقر هسه في سويسرا في بيت مزرعة بالقرب من مينوسيو ومن بعدها انتقل إلى بلدة مونتاجنولا واستأجر هناك أربع غرف صغيرة في مبنى أشبه في شكله بالقلعة، يُعرف المبنى باسم كازا كاموزي، وهناك كتب عمله "صيف كلنكسر الأخير" الذي نُشر في عام ١٩٢٠، هذه البداية الجديدة في محيط جديد جلبتَ له السعادة، وفي وقت لاحق وصف هذه الفترة من حياته بأنها كانت الأكمل والأكثر إنتاجاً وعاطفية من فترات حياته. في عام ١٩٢٢ ظهرت روايته "سدهارتا" التي أظهرت محبته للثقافة الهندية والفلسفة البوذية اللتان أثّرتا عليه في فترة سابقة من حياته.

صدر له عن دار المدى: سدهارتا - تحت العجلة - المغامرة الأولى - صيف كلنكسر الأخير - لعبة الكريات الزجاجية.

مكتبة نوبل ١٩٤٦

ISBN 284306232-2